محمد عبد المنعم خفاجى

نشـــيد الصـــحراء

مسرحية من التـــاريخ العربى

رابطة الأدب الحديث

الطبعة الأولى عام ١٩٤٧

دواوين للشاعر :

وحي العاطفة	١٩٣٦
أحلام الشباب	١٩٤٩
« السراب	١٩٦٩
الديوان الإسلامي	١٩٧٢
نغم من الخلد	١٩٧٣
على الضفاف	١٩٨١
أشواق الحياة	١٩٨٣
أغنيات من عبقر	١٩٨٧
نشيد الذكرى	١٩٨٨
نشيد الصحراء - طبعة ثانية	١٩٨٨ — مسرحية
ملحمة السيرة النبوية الخالدة	١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مسرحية نشيد الصحراء

أبطال المسرحية :

توبة الخفاجي : بطل القصة والوفي المخلص لليلى ومن شباب البادية وشعرائها النبلاء.

ليلى الأخيلية : ساحرة شاعرة والمحبوبة المنشودة لتوبة

سوار : زوج ليلى

مسلم الخفاجي : عم توبة وزعيم قبيلته

عبد الله : والد ليلى وزعيم الأخيليين

عبد الله : شقيق توبة

قابض : ابن عم توبة

مروان : أمير المدينة فى عهد معاوية

الحجاج : أمير العراق فى دولة بنى أمية

هذا إلى كثير من الأشخاص الذين يظهرون فى فصول المسرحية ومشاهدها .

« تحليل موجز للمسرحية »

بطلا هذه المسرحية هما : توبة الخفاجى ، وليلى الأخيلية ، ولدا فى أوائل خلافة عثمان ، ونشآ فى أسرتين لهما مجدهما فى البادية، وكانت منازل القبيلتين متجاورة ، فعاش توبة وليلى معاً بنجد ، وأحب توبة ليلى ، وأحبت ليلى توبة ، ونظما أناشيد الحب والهيام يصوران بها عواطفهما وحبهما وقصص وفائهما، ثم حالت تقاليد البادية بين العاشقين ، فزفت ليلى إلى سوار ، ولكنهما ظلا على عهـــد الوفاء ، حتى مات توبة عام ٥٧ هـ ، فحزنت عليه ليلى حزنا عميقا، ورثته فى مجالس الأمراء والخلفاء، وظلت على ذلك حتى توفيت بعده بحين ، ودفنت بجواره ، ومضت حياتها وذكريات حبها العذرى الخالد مثلا عظيما فى الحب والوفاء .

وهذه هى « أنشيد الصحراء » تصور هذه الحياة الحافلة بعظمة هذا الحب ، وقصة ذلك الوفاء .

وما توفيق إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

الفصل الأول

المشهد الأول

استقبال الأبطال فى عودتهم الظافرة

ليلى على جواد تتقدم موكبا طويلا من فتيات القبيـــلة وسيداتها قريبا من خيام الحى ، حيث يستقبلن أبطال القبيلة فى عودتهم الظافرة من القتال ، وليلى تنشد :

مرحباً بالقادمينا والجنود الظافرينا

الجميع يهتفن : مرحباً بالقادمينا

ليلى : يا بنى قومى سلاما فى حماكم قد حيينا

ونعمنا بالأمـانى وبمجد السالفينا

أنتم العزة والفخـ ـر لنا فى العالمينا

قد أعدتم بيننا عهـ ـد الجدود الخالدينا

الجميع : مرحباً بالقادمينا

ليلى : مرحباً بالقادمينا والشباب الطامحينا

عاد بالذل الاعادى وانثنوا منهزمينا

ورجعتم بانتصـار لم يتح للغابرينا

يا شباب الأخيليـــين سلمتم ورضينا
نلتم المجد كهولا وشبابا تابهينا
إن هذا ما تمنتـــه الأمانى أن يكونا

الجميـــع : مرحباً بالقادمينا

ليلى تتقدم إلى والدها فأذهذه الحلة وتقدم إليه إكليلا من الرياحين، ثم تنحنى فتقبل يده، وتسفر عن وجهها فى نشوة من البشر .

توبه وصديق له على جوادين قريباً من هذا الموكب يشاهدان هذا الاستقبال الحـــافل، وينصتان لنشيد ليـــلى ، فيلتفت توبة لصديقه قائلا :

يا لها من ملاك كريم، وحورية ساحرة، جمعت فى أعطافها الشعر والسحر والجمال .

صديقه : حسبك ، فلو كان لى فى الأمر شىء لجعلتها أميرة فى دولة الشعر ، أو ملـكة على عرش الجمال .

ليلى لوالدها : بوركت خطواتك الظافرة ، وحرصك الدائم
على شرف القبيلة ، ومجدها الأدبى بين أحيـــاء
العرب جميعاً ، وإلى الأبطال الذين أسهموا معك
فى إحراز هذا النصر الخـــالد أصدق عواطف
الشكر والتقدير والاعجاب .

عبد الله والد ليلى يقبل جبين كريمته قائلا :
عشت يا شاعرة الصحراء ، وإلى هؤلاء العقيلات
والفتيات شكرى وشكر هؤلاء الابطال .

ثم يسير نحو خيام الحى، ووراءه ليلى والسيدات
والفتيات ، ثم الجنود والفرسان ، وليلى تنشد :
مرحباً بالقادمينا والجنود الظافرينا

وفتيات القبيلة يهتفن : مرحباً بالقادمينا

توبة : سيرى فى رعاية الله أيها الملاك الطاهر ، فأنت
اللحن الجميل الذى طالما ظمئت لسماعه ، والأمل
الباسم الذى أشاع فى قلبى الحب والحيـــاة ،

ثم يسير وهو ينشد :

هيه ليلى أنت المنى والمرام　　وفؤادى قد دب فيه السقام

أنت أنشودتى ولحن غرامى　　ولروحى فى حب ليلى هيام

أترى ليلى قد ذكرت لديها　　وبجى فؤادها مستهام ؟

ليس لى فى الحياة هم سواها　　وحياتى بدون ليلى ظلام

المشهد الثانى

رسالة حب وتهنئة

الشمس تشرق على أرض البادية ورمال الصحراء
وتوبة فى خيمة عمه مسلم يتشاوران ويتحدثان :

مسلم لتوبة : علمت أن جيراننا الأخيليين عادوا بالأمس بعد أن انتصروا على الأعداء ، وهذه رسالة تهنئة منى إلى زعيمهم عبد الله ، فمن يحملها إليـــه من قومك يا توبة .

توبة : إذا شئت كنت أنا الرسول .

مسلم : دعك لأعظم من هذه الأمور .

توبة : إن جلال الرسالة يستدعى جلال الرسول .

مسلم : لك رأيك ، فسر بها إذا ، واصحب معك من تريد ، وعلى الطائر الميمون .

توبة : شكرا لك أيها الوالد . ثم يحنى رأسه ويخرج ، وينحدر إلى خيام القبيلة ،فيجد شقيقه (عبدالله) وابن عمه (قابضا) وصديقه (منصورا)مجتمعين فيقول لهم : أنعموا صباحا أيها الأصدقاء .

الجميـــع : وصبحك الله يا توبة بالخير والنعيم .

توبة : هذه رسالة من الأمير ، ندبنى لحملها إلى عبد الله زعيم الاخيليين ، فهيا معى جميعاً فى هذه الرحلة الجميلة .

الجميـــع : لك ما تريد . ويركبون خيولهم ، ويسيرون مع توبة ، فيجدون فى المسير، حتى يصلوا فى إشراق الضحى إلى خيام الأخيليين .

توبة لأصحابه : انتظروا قليلا حتى أستأذن لكم .

أصحابه : أولى أن يذهب أحدنا فيعلم القوم بقدومك .

توبة : على أنا هذا العبء ، ثم يتقدم حتى يقف أمام خيمة عبد الله ، فيهتف باسمه .

ليلى تخرج من الخباء وهى تقول : من المنادى ؟

توبة : حييت صباحا يا فتاة الصحراء .

ليلى : حياك الله أيها الضيف الكريم .

توبة : أريد شربة ماء .

ليلى : نعم . وتدخل ثم تخرج بعد قليل ومعها كوب ماء . . توبة يتناول الماء فى يده ويقول . . شكرتك السماء يا شاعرة الصحراء .

ليلى : الشكر لله ، ومن أنبأك أنى شاعرة ؟

توبة : ألست بطلة الأمس فى استقبال قومك الظافرين؟

ليلى : ومن أنبأك بذلك ؟

توبة : نشيدك سمعته أذنى ، وردده الصحراء .

ليلى : ومن تكون أنت أيها الشاب ؟

توبة : تـــوبة .

ليلى : توبة ! ! أكرم بك ضيفا . اشرب الماء .

توبة :

ليت أن الوصال كان شرابى
ونعيمى فى حبها وعــذابى
ليت أن اللســان كان يؤدى
سر قلبى كما يؤدى خطابى
ليس لى فى الشراب حظ ، فليلى
هى راحى وكوثرى وشرابى

ليلى فى ابتسامة عذبة : كفى يا توبة فقد شهدنا لك أنك شاعر ، أنبئنا بحاجتك .

توبة : لا حاجة لى ، غير إنى قدمت أحمل اليك رسالة قلبى وحبى ، وأحمل إلى والدك مع قومى رسالة تهنئة من عمى الأمير .

ليلى : أكرم بك من رسول .

توبة : وأين والدك يا ليلى ؟

ليلى : يطوف فى القبيلة .

توبة : ومتى يعود ؟

ليلى : الآن يعود ، فانزل أنت ومن معك فى منزل الضيافة حتى نعلمه بقدومك .

توبة : لا داعى لإعلامه الآن .

ليلى : أنت شاعر .

توبة : نعم انى شاعر بمكانك فى قلبى .

ليلى : اترك ذلك فى حى الأخيليين .

توبة : لقد دب الهوى لك فى فؤادى

دبيب دم الحياة إلى العروق

ليلى فى ابتسامة : هذه رسالتك الينا ، عرفناها وعرفنا شأن الرسول . فافرغ لأداء رسالتك الأخرى .

ثم تدخل وتخرج ومعها طفل صغير ، وتلتفت إلى توبة قائلة : هذا دليلك الى منزل الضيافة .

توبة يسير على جواده واجما ، وأمامه الطفل يتقدمه ،حتى يصل هو وأصحابه الى خيمة كبيرة، فينزلون من فوق خيولهم ويدخلون ويستريحون.

ليلى تتبع توبة ببصرها حتى يدخل الخيمة ، ثم ترسل الى والدها فيبادر بالحضور ، ويدخل على الضيوف قائلا :

السلام عليكم ومرحبا بكم أيها الأصدقاء .

توبة وأصحابه يقفون ويصافحون عبــد الله ، وتوبة يقول :

وعليك السلام أيها الأمير .. ثم يجلس الجميع

عبد الله : قدومكم عيد القبيلة .

توبة : لقد كان انتصاركم الظافر موضع إعجاب عمى وقومى وقد أرسلنا عمى مسلم برسالة تهنئة اليك بهذا النصر العظيم . ثم يناوله الرسالة .

عبد الله يتناول الرسالة ويفضها ويقرؤها ، ثم يلتفت إلى توبة ويقول :

شكرا لعمك الأمير، لقد ضمن رسالته أنبل معانى الوفاء والتهنئة ، مما يعجز لسانى وبيانى عن تقديره

ثم شكرا لك ولأخوانك الذين تحملوا آلام السفر فى سبيل تبليغ هذه الرسالة .

توبة : لا شكر على واجب أيها الأمير .

عبد الله : شكرا لنبلك يا بنى .

القهوة تدار على الجميع ، ثم يستأذن عبد الله ، ليأخذ توبة وأصحابه قسطاً من الراحة ، تاركا معهم أبنه الاكبر

وتحين منه التفاتة فيرى توبة من بعيد ليسلى ، فيغنى ويقول :

حيها فى الحسان تزهى جمالا
نجمة الحسن روعة واختيالا

حيها ملء كل قلب وروح
تتحدى بسحرها الأمثالا

ما أحيلاها عزة وشموخـــا

وصفـاء وشيمـة ودلالا

هي والسحر توأمان وكانت

للسنا وكل حسن ظــلالا

حين نصغى لقولها لنود الـ

ـد أن نستعيد منها المقالا

يا لهـا من حورية فنها للـــ

أدباء الشباب كان مثـــالا

وتحايا من معجبين كثار

أنا فيهم أقلهم عــدالا

وسلاما اليك كل صباح
ومساء أعيـــده (موالا)

يا حبيباتى الغاليات ألا حيـ
ـوا معى فى مثالها الآمالا

الهلال الفضى يشرق ليـــلا
ونرى فيك كل وقت هلالا

لم تكن ليلى يا شقيقة ليلى
منك فى عين قيس الا خيالا

حرت : ما سر ذلك الحسن منها
أنا لم أشف بالجواب السؤالا

كل شىء ليـلاى فيك جميل
وتزيدين كل يوم جمالا

المشهد الثالث

فى طريق العودة

عبد الله والد ليلى يتقدم أبطال قومه ، ويسير الجميع فى وضح الصباح المشرق نحو دار الضيافة ، ثم يدخلون فيقف توبة وأصحابه ، فيحييهم عبد الله قائلا :

حييتم صباحا أيها الأبطال .

توبة : وحياك الله بالخير أيها الأمير .

عبد الله : فرسان الأخيليين أبوا إلا أن يسهموا فى الاحتفال بوداعكم اليوم .

توبة : شكراً لهم على نبلهم ، وكريم حفاوتهم بنا ، مدة إقامتنا بينهم .

عبد الله : الشكر لك ولأصحابك يا توبة ، هذه رسالتى

أرجو أن تحملها إلى عمك الأمير ، وأن تبلغه شكري وتقديري لشخصه الكريم .

توبة : سأحملها إليه ، وأبلغه ما طوقت به جيدنا من كرم ورعاية ، وأتمنى أن تتيح لنا الأيام شرف رد هذا الجميل .

عبد الله يقبل جبين توبة قائلا : حفظ الله شبابك يا بني ، وفي رعاية الله ، وعلى الطائر الميمون.

توبة وأصحابه يصافحون عبد الله ، ويسيرون بين صفين من الرجال والشبان الذين اصطفوا لتوديعهم ، حتى يخرجوا من الحي .

توبة يلتفت نحو خيام الحي ويقول : وداعا يا أهلي ، وإلى اللقاء القريب ، ثم يسير ، ومعه أصحابه يتحدثون ويضحكون ، فيعترضهم غزال جميل ، فيبكي توبة وينشد :

يا خليـــلي سائلا ذا الغزالا

ليس بالبدع أن يجيب سؤالا

هو ليلى حسنا وحلو ابتسام
وشبابا ونضرة وجـــالا
صاغه الله مثل ليلاى سحرا
فهمـــا صيغـا للجمال مثـالا
قد أرانى شبيهـــا وبحسبى
أن أرى بيننـا لهـــا تمثالا
هى كل المنى ورؤيتها الخـــلد
ويكسوها الحسن سحرا حلالا
هى هاروت ينفث السحر على الأر
ض وقد زادها الشباب جلالا
هيه ليـلى ملكت قلبى ووجدا
نى وصرت الحياة والآمالا
فاذا ما هجرت لم أر فى الديـــ
ـش نعيما ولا لشىء جـــالا
ليتنى مت يوم أنظر ليـــلى
تنشد الشعر فى الضحى الأبطالا

ثم يسقط من فوق جواده مغشياً عليه .

الفصل الثاني

المشهد الأول

عذاب الحب

توبة على جواده فى البادية، يسير حتى يقرب من حى ليلى، وعلى بعد خطوات من شجيرات مورقة، فيقول لنفسه : هذا حى ليلى ثم ينزل فيترك جواده وراء هذه الشجيرات ويسير على قدميه حتى يدخل الحى ، ويصل إلى خباء ليلى فيطرق بابه :

ليلى من جانب الخباء : من الطارق ؟

توبة : ضيف .

ليلى : مرحبا بالضيف ، ثم تفتح باب الخباء ، فترى توبة .

توبة : أولا أستريح بجانب خبائك يا ليلى حتى يذهب حر الظهيرة اللافح ؟

ليلى : لك ما تريد إلى أن نقدم لك الغداء .

توبة : يكفيني رؤيتك يا ليلى غداء .

ليلى : بحسبي منك شقاء شعرك في غزال الصحراء الذي رددته البادية جميعاً .

توبة : وما شقاؤك منه يا ليلى ؟

ليلى : قالوا : توبة يحب ليلى .

توبة : وهل في الحب يا للناس عار ؟

ليلى : أليس الحب سراً لا يذاع ؟

توبة : أليس بأرضنا ليلى سواك ؟

ليلى : ومن غيرى بها تيك البوادى ؟

توبة : فصفحاً إنني - ليلى - فداك
وحسبي اليوم حظا أن أراك
منـــاى ولذتى أبدا لقـــاك
وروحى في يديك وفي هواك

فليت الله بالحب ابتلاك

لقد أصبحت يا ليلى ملاكي

وهجرك - لا بليت به - هلاكي

وما قلبي لفاتنة سواك

لعل الله يمنحني هواك

ليلى : ما أكثر كلامكم أيها الشعراء .

توبة : بوركت يا ليلى ويا أخت الوفاء

ترعاك فينا دائماً عين السماء

منك المنى بل أنت يا ليلى الرجاء

ووجهك الساحر يا ليلى الضياء

وفي يديك الماء للقوم الظماء

ليلى تسمع صوت خطوات قريبة منها فتدخل الخباء

أم ليلى : أين كنت يا ليلى ؟

ليلى : كنت أناول ضيفاً نزل بخبائنا شربة ماء .

أمهـــا : وهل عرضت عليه الغداء ؟
ليـلى : إنه شاعر ألهاه الشعر عن الغداء .
أمهـــا : قدمى اليه الزاد وهو وما يشاء .

ليلى تخرج حاملة الأكل والماء ، وتضعهما أمام توبة .

توبة : ليس لى فى الأكل أرب
أنت يا ليـــلاى الأرب

ليـلى : ليلى زهرة لن يقطفهـــا سواك يا توبة ، فانعم وامرح وتناول الغداء .

توبة : إذا فقد طابت لى الحياة وينشد :
لك يا ليلى حيـــاتى فداء
أنت يا ليـــلى المنى والرجاء
اسمك الحـــلو لحـــبى نشيد
بالهوى قد سار فيه الغناء
أنت أحـــلامى وسر هيامى
وبدائى أنت أنت الدواء

أنت كل الحسن أنت الأماني
أنت سلواى وأنت العـــزاء
فيك آمالي ومنك شقـــائى
وعلى الحب يلذ الشقـاء
أنت دنيا السحر أنت نعيمى
أنت فردوسى وأنت الهناء
أنت تمثال الجمال ووجه
ســـاحر قد صورته السماء
أنت ألحان الوفاء بدهر
عـز يا ليلى عليه الوفاء

* *

المشهد الثــــانى

القبيلة تثور للانتقام

الشمس تشرق على أرجاء البادية ، وعبد الله والد ليلى أمام خيمته ، وحوله بعض أبنائه وقومه . فيتقدم اليه رجل فى انحناء قائلا :

أنعم صباحا أيها الأمير .

عبد الله : حياك الله بالخير يا بنى .

الرجل : هل بلغك ما ترده البادية فى كريمتك ليلى ؟

عبد الله : وما الذى ترده البادية ؟

الرجل : يروون أناشيد من الحب والهيـــام نظمها فيها توبة الخفاجى .

رجل آخر : وسمعت أنه يتردد على حينا ، حين نخرج

بالابل إلى الوديان القريبة مناء ليراها ويتحدث معها وينشدها شعره .

عبد الله : الويل لتوبة لن يكون ذلك بعد الآن .

القوم : لن يدخل حينا أبدا ما دام فينا عرق ينبض ، وقلب يخفق ، وسنتربص له فان رأيناه قتلناه .

ثلة من فرسان القبيلة يقفون حول الحى يتربصون لتوبة وباقى القوم يخرجون إلى المسارح والمراعى بالابل والاغنام ، ويظلون متربصين حتى الظهر ، ثم يضجرون فيقول واحد منهم : ماكان أحد ليحضر الآن فى هذا الحر اللافح ، فهيا بنـــا لنستريح الى الأصيل ثم نعود ، فيردون عليه : هذا هو الرأى ، وينصرفون .

توبة يسير قريباً من الحى،فيدخل، ويسير إلى خباء ليلى ويطرق طرقا خفيفاً ، فتخرج ليلى ، فتراه ، فتبادره « النجاة يا توبة ، النجاة ، لقد أقسم القوم ألا تدخل حيهم أبداً ، وكانو متربصين لك ليقتلوك منذ زمن قريب ، فانج بنفسك »

توبة : دعيني يا ليلى فلن أعبأ بتهديد، زوديني بأحاديثك العذاب ، وبنظرة من وجهك الساحر الجميل .

ليلى : أنت شاعر ، النجاة ، فلم يبق لي أمل في نجاتك اليوم .

توبة : إني لا أخشى يا ليلى شيئاً ، إلا أن يحولوا بيننا وبين نعيم اللقاء ، ولكني سأزورك مهما كان ، فأناشدك يا ليلى العطف والوفاء .

ليلى : لا تضع وفائي موضع الشك في نفسك ، ولكني أناشدك قليلا من التضحية بعواطفك ، وأن تتحمل آلام الفراق أياما، لتجني أزاهير السعادة أعواما وسنين .

توبة : لا صبر لي على فراقك يا ليلى ، فلابد من اللقاء كل صباح ومساء ، وابتهلي يا ليلى معي إلى الله أن ينقذنا من هذا الشقاء .

ثم يودعها ويخرج من الحي ، ويقف قريباً منه عدة ساعات .

فرسان القبيلة يخرجون فى الحى قرب الأصيل، فيجدون شبحاً من بعيد ، فيطيرون نحوه ، ويعدو توبة فى وسط الصحراء .

توبة يعود فى المساء بعد عدة ساعات، فينظر إلى الحى ، ويقول لنفسه : لابد لى من الاحتيال على زيارة ليلى فى هذا المساء ، ثم يخلع ثوبه ويلبس ثوبا قديما كان معه ، ويدخل الحى فى زى أعرابى فقير ، والقوم يتسامرون فى مجلس عبد الله ، بعيداً عن خباء ليلى ؛ فيسير هو نحو الخباء ، ويقترب منه ، فيرى ليلى واقفة أمامه ، وتبادره ليلى قائلة :

من القـــادم ؟

توبة : ضيف .

ليلى تتأمل فيه فتعرفه فتقول :

أكرم بتوبة ضيفاً ، وما أشد جرأتك على الأخيليين .

توبة : إنى لا أبالى بأحد فى سبيلك يا ليلى .

ليلى : وحسبك هذا استهتاراً .

صوت أقدام تقترب من الخباء ، فتدخل ليلى ، ويقف توبة ، رجل يتقدم على جواد ويصيح :

من هذا الأعرابى ؟

توبة : ضيف أضله الظلام ، وأنهك السفر قوته .

الرجل ينزل من على جواده ، ويتقدم فيتأمل فى وجه توبة ، ثم يصيح :

ألست توبة ، ولك المثل السوء ؟

توبة يصمت .

الرجل : ستلاقى حتفك الآن ، من الذى جرأك على دخول حى الأخيليين ؟ ثم يصيح بالقوم قائلا :

توبة أيهـــا القوم .

توبة ينهض فيصرع الرجل ويركب فرسه ويطير بها فى وسط الصحراء .

القوم يسرعون نحو الصوت، فيجدون الرجل، فيصيح فيهم :

توبة فر من هنا الآن، فيركب أربعة منهم خيولهم الواقفة حول خيام الحى ، ويطيرون بها وراء توبة فى الصحراء ، فلا يجدون له أثراً. فيعودون.

توبة على الجواد يسير. ويجد فى المسير. فيعثر به الفرس فيسقط جريحا . ثم يفيق بعد حين . فيجد الدم يتدفق من جروحه فيمسحه. ويتذكر ليلى فينشد :

طال ليلى فما أحس رقادى
ومشى الحب شعلة فى فؤادى
يا حبيبى وأين منى حبيبى ؟
لك نفسى ومهجتى ووِدادى
ليت ليلى ترثى لحالى وهمى
ليتها شاهدت عثار جوادى

ليتها نبئت بمـــا أنا فيه

ورأت ما قد جشمتنا الأعادى

جرعونا كأس الفراق فصرنا

رهن حزن وفرقة وبعـــاد

ذكر ليلى على الفؤاد سلام

ولليلى عندى كريم الأيادى

هى شمس مضيئـــة هى بدر

يرسل الضوء فى سماء البلاد

اسمها لحنى فى الهوى ونشيدى

وهواها سحر سرى فى الفؤاد

* * *

الفصل الثالث

المشهد الأول

توبة يخطب ليلى

وفد كبير يسير فى جوف الصحراء ، وعلى رأسه
مسلم عم توبة : وفيه توبة وبعض أبطال قومه،
الجميع يقتربون من حى الاخيليين قرب الأصيل،
فيرسل مسلم رسولا منهم ليبلغ عبد الله نبأ قدومه،
فيسير الرسول ، ويدخل الحى ، ويقف فى مجلس
عبد الله قائلا : أيها الأمير . . مسلم الأمير وقومه
وافدون عليكم الآن .

عبد الله والد ليلى : مرحبا به وبأصدقائنا الأعزاء ثم يحاول
النهوض لاستقباله .

رجل من قوم عبد الله : وهل توبة معه .

الرسول : نعـــم .

الرجل : وفيم جاء ؟

الرسول : جاء يخطب ليلى بنت الأمير .

الرجل : محال أن يدخل توبة الحى بعد أن كان منه ما كان.

الرسول : وهل كان توبة لكم الا أعز صديق حميم .

الرجل : وهل كان إلا شاعرا شهر اسمنا واسم ليلى بين أحياء العرب جميعا .

أخو ليلى : محال دخول توبة .

الجميع : نعم محال ذلك ولن يكون .

والد ليلى للرسول : لقد رأيت تصميم القبيلة .

الرسول : ولكن لك الرأى الأخير ، فليس توبة إلا أحد أفراد حاشية الأمير .

القوم : أما نحن فلا نوافق على دخوله بأى حال بعد أن سارت أناشيده فى ليلى .

الرسول : وهل قال إلا خيرا أيها الأصدقاء .

القوم فى حمية الغضب : ذلك ما لن يكون .

الرسول : إنى منتظر رأى الأمير .

عبد الله : بلغ الأمير تهنئتي بسلامه الوصول ، ونبئه بما سمعت ورأيت ، فان أجاب رجاء القبيلة شكرت له هذا الصنيع ، وإلا فله الكلمة الأخيرة .

الرسول : قد يكون ذلك إيذانا بعدم قبولك ضيافة الأمير ، فاناشدك الا يمنع توبة من الدخول مع عمه مسلم .

الاخيليون : أيوافق ويخالف رأى قومه .

عبد الله : رويدا أيها الأبطال ، لنرحب بالجميع ، حتى تنتهى ساعات الضيافة ، فذلك أول ما نفعله الآن .

الجميع يصمتون : ويلتفت عبد الله إلى الرسول قائلا : إنى أرحب بالجميع .

الرسول : يخرج ويبلغ الأمير وحاشيته ذلك قائلا : هيا فالأمر صار الآن على خير ما تحبون بعد جدل عنيف .

مسلم وحاشيته ، يدخلون الحى بين صفين من الفرسان ، وينزلون فى خيمة كبيرة .

عبد الله وقومه على باب الخيمة يرحبون بالأمير وحاشيته . يدخل الجميع ويجلسون .

عبد الله لمسلم مرحبـــا بالصديق الكريم ، القبيلة فى غبطة بزيارتك .

مسلم : شكرا لك ولقومك على نبيل عواطفك وكريم حفاوتك .

القهوة تدار على الجميع .

مسلم لعبد الله : أود قبل كل شىء أن أنبئك بالأمر الذى قدمت من أجله ، يعلم صديق الحيم ان ابن اخى توبة موضع عطفى ورعايتى منذ توفى والده من عدة سنين ، ويعلم كذلك مجد توبة فى حسبه وأدبه ، ثم أنه قد احب الخلق والأدب والنبل فى شخص ابنتك ليلى .

توبة يبكى حين يسمع ذكر ليلى

مسلم : وتوبة وليلى غنيان عن الاشادة ، هما يجمعان فى

أعطافهما من آثار المجد الخالد، وبما يلوح في جبينها من مظاهر الشباب الناضر، وبما ينفثه على لسانها وحى الشعر وإلهام الخيال .

فرسان الاخيليين يهمسون في غضب ، محال أن نقبل تلك اليد التي تمتد إلينا بالمصاهرة .

عبد الله : إن توبة لعلى ما ذكره الأمير من النبل والأدب والحسب ، ولكنه أحب ليلى ، ثم شهر حبه لها في قصائد رددتها البادية ، وسارت بها الصحراء وقد مضت شريعة الآباء والأجداد على أن يحال بين الفتاة والشاعر الذى أعلن حبه لها ، فكيف اخالف ما ألفته البادية ، وما اصطلح الناس عليه فيهـــا ؟

توبة يحاول أن يتكلم فيبادره عبد الله .

عبد الله : ولكنى ايها الأمـــير إجلالا لشخصيتك سأعرض الأمر على القبيلة ، وسأنبئك بعد قليل بما يكون .

القهوة تدار على الجميع ، ويخرج عبد الله ومعه عدد كبير من قومه .

حاشية مسلم فى الخيمة توقظ توبة فلا يفيق ، فيذكرون له اسم ليلى ، فينهض قائلا :

وأين ليـــلى ؟ ثم يدور ببصره فى أرجاء الخيمة فلا يجدها فيبكى .

عبد الله لقومه الأخيليين خارج الخيمة :

ماذا ترون أيها القوم !

القـــوم : لا نقبل أبدا تلك المصاهرة أيها الأمير .

عبد الله : وهذا رأيى الأخير .

القـــوم : وهو ما يكون ان شاء الله .

وتوبة فى خيمته فى القبيلة ويقوم وهو ينشـــد :

من انت يا روحى ويا حلمى ؟
من أنت يا أحلى من النغـــم ؟

يا نجمة فى الأفق جن بها الدجى

وبدت ضياء صباى فى الظــلم

ياكم بدت لمشاعرى الحيرى على

أمل أرجيــه وفى الألم

أسطورة جاءت من الزمن البعيد

ومثلت إيزيس فى القــدم

يا قلب دمعى ملء طرفى ، والأسى

فى مهجتى ، والحزن ملء فمى

صبرا فلست على الأمور مهيمنا

وعلى هموم الدهر فابتسم

ما أضيق الدنيا على القلب الحزين

فبالإله تعــز واعتصم

* * *

المشهد الثانى

أمل ينهـــار

أخت صغيرة لليـــلى كانت حاضرة اجتماع والدها برجال القبيلة ، تدخل على ليلى فتبادرها

يا أختاه ، والدك والقبيلة يرفضون يد توبة التى امتدت إليهم بالمصاهرة .

ليلى تبكى وتقول لنفسها فى همس :

ذهبت الآمال المنشودة التى بنيت بها قصورا شامخة من السعادة وكأنما كانت تلك الآمـال سرابا من الصحراء . ثم تبكى وتستمر فى البكاء .

عبد الله يدخل على مسلم قائلا : أنعم مساء أيها الأمير ، ومرحبا بكم أيها الضيوف الاعزاء

مسلم ينهض فيصافح عبـــد الله ويحييه قائلا :
وأنعم الله مساءك أيها الصديق . ثم يجلسان .

مسلم : لعلك على رأيى فى الموضوع الذى قدمت من أجله يا أبا ليلى .

عبد الله : يودى أن لو كان ذلك ، ولـكن .

مسلم : ولـكن ماذا ؟

عبد الله : القبيلة ترفض تلك المصاهرة .

مسلم : ولـكن لك أنت الرأى الأخير .

عبد الله فى أسف : يمنعنى من ذلك الشرف والعرض وسمعـــة القبيلة وتقاليد الآباء .

مسلم : لقد حاربت توبة أحكام القضاء .

عبد الله : عسى ان يكون له فى الصبر وفى غير ليلى عزاء .

مسلم : هذا ما تمنيت أن يكون ، ولكنه الحب .

عبد الله : الحب خيالات وأوهام .

مسلم : هذا رأى لك وحدك أو عزاء تعزى به توبة

الآن ، ولكن الحب هو سر الحياة ، وسنستأذن في العودة إن شاء الله ثم ينهض وتنهض معه حاشيته .

عبد الله : وددت أن لو استطعت تلبية ما وجهته إلى من رجاء ، ولكنا سنة الآباء وشريعة الصحراء .

مسلم : أشكرك ، ويسير ، ومعه عبـــد الله ووراءهما الحاشية بين صفين من رجال القبيلة ، حتى يخرج من الحى ، فيودعه عبد الله ، ويركب مسلم ومن معه ، ويطيرون بخيولهم فى الصحراء .

توبة : ينظر إلى حى ليلى ويبكى .

عمه مسلم : دع عنك البكاء .

توبة : وكيف وقد ذهب الأمل وضاع الرجاء !

عمه : لك فى غير ليلى عزاء .

توبة : وهل يتسع قلبى لغير ليلى يا عماه .

ابن عم توبة : أفق يا توبة من الآن ، من سكرات الهوى والهيام .

توبة :

يا خليلى حسب همى دعانى

إن ليلى وحبها قد شجانى

لا تلوما فى حب ليلى فليلى

ملء عينى ومسمعى وجنانى

حسب قلبى من حب ليلى شقاء

فدعونى يا أهل ودى وشانى

إن ليـــلى فى الحب لحن لذيذ

وهواها أنشودة فى لسانى

هى ذكرى ومنيتى ونشيدى

وهى الحب والهوى والامانى

هى فى قلبى وأسمها فى لسانى

وعليهـــا وقفت سحر بيانى

هى نور الرجاء يمشى وئيدا

في ظلام الشجون والاحزان

اسم ليلى عندى لذيذ وليلى

هى كل المنى وسحر الحنان

تركتنى ليـلى حزينا معنى

فكأنى خلقت للأشجان

أين ليلى منـا الغداة وليلى

مزجت راح الوصل بالهجران

قد قضى الدهر بيننا بافتراق

ورمانا بالبين جور الزمان

وسعى بى الشقاء للحين والهم

ولج الزمـــان فى حرمانى

مَن على القوم لو رثوا لهموى

ثم أدنوا من قلب ليلى مكانى

ليت دهرى يلف شملى بليلى

فتدب الحيـــاة فى جثمانى

أين ليلى ! ليلى بقلبى ولكن

جسمها ظل نائيا عن عيانى

إنها الحب والحيـــاة وروحى

قد سما بالهوى لأسمى المعانى

* *

المشهد الثالث

زفاف ليـــلى

الزغاريد ترن فى البادية بعد المساء ، تعلن عقد قران ليلى وسوار ، وحى ليلى وقومهـــا ووالدتها وإخوتها فى نشوة البشر ، وليلى فى خبائها ، ومعها بعض صديقاتها وعيناها تذرفان الدموع ، ثم تدخل عليهـــا والدتها فتبادرها:
أهنئك يا ليلى بنعيم الزوجية فى ظلال سوار .

ليـلى : وهل انتهى الأمر دون أن تفكروا فى شباب ليلى الذى بدأ يدب فيه الذبول .

والدتها : حسبك يا ليلى ، إن « سوارا » من أبطال البادية وشعرائها .

ليـلى : ولكن قلبى لا يتسع لسوار .

والدتها : ضحي بقلبك وعواطفك لتكوني جديرة بالاعجاب .

ليلى : وأي فتاة تستطيع أن تفعل ذلك يا أماه ؟

والدتها : ليلى هي التي تستطيع ان تفعل ذلك في سبيل الاسرة والقبيلة وكرامة الآباء والأجداد .

ليلى : لقد كلفتم ليلى أكثر مما تطيق ، وجعلتموها ضحية لما ترددونه من كلمات ، وليلى لم تخن عهد الشرف والمجد ، ولن تخون عهد الحب والوفاء ، فليفعل القدر بها ما يشاء .

والدتها : لقد انتهى الأمر ، فوفقي بين عواطفك وبين الواقع الملموس .

ليلى : يا أمـــاه

زواج بلا حب شقاء ومحنة
وهم وماجدوى الزواج بلا حب
يسوموني سوء العذاب فليتني
خلقت بلا عقل وعشت بلاقلب

فرفقا بنفس طال ما شكت الهوى
وحسبي من الآلام ان الهوى ذنبي

والدتها : ولم لا يحب قلبك « ســـوارا » مثل ما احب « توبة » ؟ وتوبة شاب عربيد .

ليلى :

أيقرن سوار بتوبة همـــة
وتوبة امسى بيننا بطل الحرب
وتوبة من عهـــد الطفولة ماجد
وتوبة كان العيش فى ظله حسبي
يعيبون عندى الماجد الحر توبة
فهل كان سوار بريئا من العيب؟

أخت سوار تدخل على ليلى ، وتنشد فى فرح :

ردد الوادى أناشيد القران
وشدا الدهر بألحان التهانى

وتلاقى الدين والدنيـــا على
أنبل الغايات يوم المهرجان
فاسلمى فى ظـــل سوار وفى
عيشة الحب وفى دنيا الحنان
وانعمى أيتهـــا الشمس به
واغنمى فى صفوه صفو الزمان
بارك الحب الليـــلى وله
إنما ليـلى لنـا كل الأمانى

توبة : على جواده فى الصحراء ، بعد المساء ، قرب حى ليلى ، فيسمع أناشيد القران واسم ليلى وسوار فيغشى عليه .

صديقة ليلى تدخل عليها فى سرور وفرح وتنشد:

ليلى لك الخير وكل المنى
الشعب باليمن يهنيك
أشرق بالبشر جبين العلى
وجاءت الدنيا تحييك

والبدر في آفاقه ضاحك
يبسم بالخير لواديك
ليلى إله الحب يحميك
وكل من في الأرض يفديك

ليلى : يغشى عليها .

توبة يفيق ويسير نحو الحي ، فيلاقيه فتى من قوم ليلى ، فيبادره .

ما هذا يا فتى ؟

الفتى : فرح ليلى وسوار .

توبة : ليلى وسوار .

الفتى : نعم ليلى وسوار .

توبه : يسير قليلا ثم يغشى عليه .

سوار في مجلس والد ليلى وحولهما القبيلة وأصدقاء سوار ، ثم يلتفت سوار إلى والد ليلى قائلا :

أيها الأمير نريد أن نسير بليلى الآن .

والد ليلى : ولم الآن .

سوار : حتى لا يعلم توبة ، فيسعى وراءنا ينشد فينــــا الأشعار .

والد ليلى : إن رأيك لصواب . ويلتفت إلى قومه قائلا: هيا تأهبوا لتسيروا مع ليلى وسوار .

الجميع : سمعا أيها الأمير . ثم يخرجون فيحضرون الجمال ليلى تركب على هودج ومعها والدتها وأخت سوار ، وصديقاتها وبعض فتيات القبيـلة على هودجين آخرين ، ويسير الموكب ، أمامه أصدقاء سوار، ووراءه فرسان الأخيليين،بين الزغاريد والهتاف ، واللعب بالسيوف والرماح .

أصدقاء سوار ينشدون :

فدى ليلى فداها جميع من رآها

إلهها حباهـــا وبالحسن كساها

وبالمجد غـــذاها وسوار رعاهـا
فدى ليلى فداها جميع من سواها
وبلغت مناهـــا وعاشت فى حماها
فدى ليلى فداهـا جميع من رآها

ثم يسيرون قليلا وينشدون :

عاش سوار وليلى فى ظلال الحب أهلا
يقطعان العمر وصلا يقضيان الدهر سهلا
عاش سوار وليلى جمعا بالمجد شمـــلا
وجه ليلى قد أهلا بالسنا حين تجلى
إنما الشمس كليـــلى مرحبا ليلى وأهلا
قد حبانا الله فضلا زدتنا ياليل نبـــلا

توبة يسير وراء الموكب من بعيد فى وجوم، ويظل سائرا حتى يصل قريبا من حى سوار ، فيقف حتى يغيب الموكب عن عينيه ، ثم يخر مغشيا عليه ، ولكنه يسمع اسم ليلى فيفيق ويركب فرسه ، ويسير فى الصحراء وهو ينشد

مالها ؟ زوجها بها قد سارا

إن ليلى قد زوجت سوارا

ألبستنى سقما اقام وسارت

واستجابت قلبي اليها فطارا

إن وجدى بها وطول هيامى

بات بين الاحشاء يوقد نارا

طال فى حى زوج ليلى وقوفى

أتلق من نحــــوه الأخبارا

أيها القــــوم بلغوها سلامي

واتقوا أخذ طرفها السحارا

ما رأينا لوجهها شبها فى النســـا

س سقيـــا لوجهها الامطارا

جن قلبي بها وهام فؤادى

ورأى قربها المنى والفخارا

يا لليـــــلى ويا لوالد ليـــلى

حين أبدى كرها لنا وازورارا

ليس لى عن ليلى غنى واصطبار
وأرى ليلى المجد والاوطارا
ضاع فى حبها نضير شبابى
ولقد بات حبها لى شعارا
والليالى من هجر ليلى طوال
وأراها فى وصل ليلى قصارا
إنها نور فى ظلام حياتى
ولحيى أن زوجت سوارا
كل يوم لى فى الديار وقوف
وقليل لدارها أن تزارا
امل يسعى بى إليها حنينا
ولها أبكى فى الهوى استعبارا
هيه ليلى قلبى بحبك عان
زاده يا ليلى الهوى استهتارا

* * *

الفصل الرابع

المشهد الأول

سقـام وهيـــام

سوار لليلى وقت الضحى :

البادية يا ليلى تتحدث أن « توبة » يدخل الحى فيتحدث اليك وتتحدثين إليه .

ليلى : وما يضيرك من هذا يا سوار !

سوار : ماذا تقولين ! !
لن يحدث ذلك بعـــد الان ، لا يسلم عليك ولا تسلمين عليه ، ولا يكلمك ولا تكلمينه بأى حال .

ليلى : لا تفرض على قيودا لا يلزمنى بها ضميرى .

سوار : لا ، سأقيد حريتك بكل ما أريد .

ليلى : ومن الذى يوافقك على ذلك !

سوار : ضميرى هو الذى يوافقنى على ما أقول ، وليلى هى التى تلزم بتنفيذ كل ما أقول !

ليلى : يا لها من غيرة قاتلة،من رجل كتوبة حرم بهجة الحياة ، ونعيم العيش ، وهام على وجهه فى الصحراء .

سوار : أنا وما أشاء ، ومن الآن فسأحجبك عن كل انسان فى البادية .

ليلى : ليس لك حجر على حريتى الا فى حدود الشرف والفضيلة ، فأما أن تحجر على بحق وبغير حق فذلك ما لا أقبله منك بعد الآن ، ثم تخرج من الخباء ، ويخرج بعدها سوار الى الوديان القريبة من الحى .

ليلى واقفة على باب الخباء تقلب بصرها فى الفضاء ، فاذا بهـــا ترى توبة يسير نحوها ويبادرها .

توبة : كيف أصبحت بعدى يا ليلى .

ليلى : أصبحت في بلاء وعشت في شقاء .

توبة : بوركت يا ليلى أنت مثال الوفاء .

ليلى : وما أشقى الا بهذا الوفاء .

توبة : وفي الغد سيكون لك مجد هذا الوفاء .

ليلى : دمت يا توبة موضع الامل والرجاء ، وعشت في لطف القدر ورحمة القضاء ، ونفسي لك يا توبة الفـــداء .

توبة : بل روحي وجميع ما في الحياة لك يا ليلى الفداء .

ليلى : لم هذا السقام والهيام يا توبة ؟ لاتعذب نفسك كل هذا العذاب .

توبة : وكيف وتوبة لا يرى وجه ليـــلى الحبيب ، ولا يزورها الا وعليه ألف رقيب ، ويدعو باسم ليلى في غسق الدجى فلا يسمع من مجيب ، ويحيا في عهد الشباب وكأنه في كهولة المشيب .

ليلى : حسبك يا توبة أن روحينا تهيمان معا في أجواء السماء ، وقلبينا يتلاقيان كل صباح ومساء .

توبة : توبة مشرد محروم ، وزيارتك يا ليلى أشق عليه
من مصافحة النجوم ، فكيف يبتسم للحيــاة
أو تبتسم له الحياة ؟

ثم يلتفت فيبصر أشباحا من بعيد تسير نحوه
فيبادر ليلى ؟

وداعا يا ليلى وداع الاحباء . ثم يبكى ويسير
حتى يخرج من الحى ، ويظل سائرا فى الصحراء
ينشد :

آه من سهـدى	زاد بى سهـدى
آه من كمدى	قاتلى كمدى
ليل فى خلدى	متعـة الابـد
هى فى البلد	كوكب البلد
هى فى الكبد	فلذة الكبد
إنهـا رشدى	ونعيم غدى
حبها كمدى	حبها سهدى

سوار قادم من الصحراء إلى حيه ، فيرى توبة في الطريق فيقول له :

من أين قدمت يا توبة ؟ لعلك كنت في زيارة ليلى ، أو أنك ساع نحوها لزيارتها .

توبة : وما يضيرك من هذا أو من ذاك ياسوار !

سوار في غضب :

أحذرك ، فلا أريد أن اراك في حينا من الآن

توبة : رفقا بنفسك يا سوار ، فلولا مكانك من ليلى لما غربت عليك شمس هذا النهار .

سوار : نصحتك وحذرتك وأنت وما تشاء .

توبة يتركه ويسير ، فيجد نفسه تجاه حين الأصيل قرب حي الاخيليين ثم ينظر فيرى دار ليلى التي كان يزورها فيقف وينشد :

أين ليلى ؟ غالت بليلى الديار
وتولى الأحباب والسمار
فرقتنا الأيام بعد وصال

شهدته الضحى وتلك الدار

حاربتنا يد الزمان طويلا

وتمادت في حربنا الاقدار

وسرى القوم في المساء بليلى

وفؤادي أمامهم حين ساروا

قدس الحب عهد ليلى وعهدي

ومشى الليل في الهوى والنهار

أين ليلى منى الغداة ! وليلى

هي عندي الرجاء والاوطار

لم يقارب جمالها حسن شيء

كل حسن من وجهها مستعار

حجبوها عنى فرحت ! فقالوا

عبثا : زوجها عليها يغار

يا لليلى ويا لحمى بليلى

كنت منخوف هجرها أستطار

ان ليلى بين الضلوع وحسبى
أن ليلى وحبها لى شعار

إخوة ليلى يدخلون الحى فيجدون توبة واقفا ينشد فى ليلى الاشعار فيتقدم منه أحدهم قائلا : توبة لن نصبر عليك بعد الآن ، اترك ليلى وشأنها ، فأنت حملتها اللوم والشقاء .

إخوة ليلى نعم، لا عذر لك بعد الآن ، فى هذا العبث والاستهتار .

توبة :

الناس يا ليلى غضاب
وحديثهم أبدا عتاب
وهواك يا ليلى عذاب
أنت الأمانى العذاب
قد ضاع فى الحب الشباب
والحب يا ليلى سراب

أخو توبة وابن عمه يبحثان عن توبة وسط الصحراء ، ثم يجدونه لجأة على هذه الحال فى تلك اللحظة ويريان ما هو فيه من شحوب وسقام ، فيبكيان ويتقدم إليه أخوه قائلا :

هيا بنا يا توبة ، نعود إلى أمك التى تبكى عليك ليل نهار .

توبة : اذهبوا فلن اعود .

أخو ليلى : لقد نهيناه عن الاستهتار بكرامة ليلى وأسرتها فلم يلتفت بعد ، فانصحوه أيها الأخوان .

شقيق توبة : رفقا بتوبة أيها الأصدقاء : كفاه ما هو فيه من عذاب وشقاء .

ثم يحمله على فرسه ، ويركب معه ، ويركب ابن عمه ويسيرون حتى يدخلوا به الحى على والدته .

والدة توبة تبكى وتقول :

كيف أنت يا توبة ، ولم تحمل نفسك كل هذه الآلام .

توبة يبكى . .

عمه يدخل عليه ويقول :

كيف أنت يا توبة ، دع عنك هذه الأوهام ، لقــد خطبنا لك بنت عمتك ، وسنعقد قرانك بها الآن .

توبة : لن أتزوج بعد ليلى يا عماه .

عمـــه : لا تفكر فى ليلى ، فهى الفاكهة المحرمة ، إن ليلى قد قسمت لغـــيرك ، وخطيبتك تفوقها حسنا وحسبا وأدبا .

توبة : لن أتزوج أبدا بأى حال .

والدته : اخضع يا بنى لارادة عمك ، وحسبك هــذا السقام والهيام .

توبة يغشى عليه فينام ، ثم يفيق بالليل ، وتمر بذاكرته الذكريات ، فيقول لنفســه .

ميعاد ليلى عندك ضحى الغد ، ثم ينام ثم يستيقظ

وهو يقول ميعادى مع ليلى صبح هذا المساء ، ثم ينام ويستيقظ ، فيرى ضوء الصباح ، فينهض ويركب فرسه ، ويسير بها فى الصحراء .

سوار وبعض أصحابه يسيرون فى حيهم ويكمنون لتوبة وراء التلال القريبة من الحى .

توبة يسير حتى يصل إلى حى سوار فتراه ليلى ، فتسفر عن وجهها ، فيحدث توبة نفسه قائلا : لا بد أنها تحذرنى شرا قريب الوقوع ، فيركب فرسه ويعدو بها فى البادية .

سوار ومن معه ينتظرون عدة ساعات فيضجرون ويتفرقون .

توبة يعود إلى حى سوار فى حرارة الظهيرة فتبصره ليلى فتخرج وتبادره :
كدت أن تلقى مصرعك اليوم يا توبة .

توبة : دعينى أمت شهيد الحب يا ليلى .

ليلى : لا قدر الله عش لتحيا حيـــاة سعيدة في ظل خطيبتك يا توبة .

توبة : لن اتزوج بعدك يا ليلى ، ولن تكون فتاة بعدك شريكة لي في الحياة ، ما دمت على قيد الحياة .

ليلى : ولم يا توبة ؟ حرام ان تعذب نفسك كل هذا العذاب

توبة : وهل تطيب الحياة بعدك يا ليلى ؟ لا والله ثم ينهض قائلا : دعيني أقبل يدك يا ليلى فعسى أن يكون فيها لقلبي الشفاء .

ليــلى :

وذى حاجة قلنا له لاتبح بها
فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
ومذهب مثلى فى الوفاء جميل

توبة يبكى . .

ليلى : وداعا يا توبة .

توبة : وداعا يا ليلى . ثم يسير حتى يخرج من الحى .

سوار وبعض أصدقائه يسيرون على خيولهم وسط الصحراء حتى يدخلوا على أمير المدينة مروان ، فيتقدم إليه سوار قائلا :

السلام عليك أيها الأمير

مروان : حياك الله وبياك ، وماذا كان ياسوار من شأن توبة مع ليلاك :

سوار : نهيناه أيها الأمير عن دخول الحى، وعن زيارة ليلى ، فلم يستمع لنصيحة .

مروان : نهيتموه ونصحتموه ؟

سوار : نعم . نهيناه ونصحناه ، وطلبنا إلى قومه أن ينهوه عن هذا الاستهتار .

وأنا أشهدك أيها الأمير أنا بريئون من دمه إن ظل على هذا الاستهتار .

مروان : لكم ذلك إن دخل حيكم بعد الآن ، بأى عذر من الأعذار .

سوار : شكرا للأمير حامى شرائع الصحراء ، والذائد عن كرامة الأجداد والآباء .

ثم يستأذن ويسير ، ومعه أصحابه ، فيمرون بتوبة فى الصحراء .

سوار : أحذرك يا توبة من دخول حينا بعد الآن ، فقد أهدر الأمير مروان دمك إن دخلته بأى عذر من الأعذار .

توبة : كلكم لتوبة أعداء ، يا لقسوة هـذا القضاء ، وينشد :

خذرونى من لقائك ليـــلى
ليت شعرى أيعز اللقـــاء

إنما الحب لقاء ووصل

وحديث ومنى ودعاء

عذبونى فى هواها طويلا

إن أحشائى لليلى ظماء

سار سوار لفتك حياتى

ودمى فى حب ليلى فداء



المشهد الثانى

مصرع توبـــة

ثلاثون فارسا من العقيليين يطيرون بخيولهم فى البادية صائحين :الويل لتوبة ، الويل لتوبة ، أيقتل أبطالنا واحدا بعد واحد ، ثم ينعم بعد ذلك بالحياة ؟

الفرسان يجدون فى السير وراء توبة فلايجدون له أثرا فيعودون .

توبة وشقيقه عبد الله وابن عمه قابض ، على خيولهم فى الصحراء ، ويسيرون فيصلون إلى هضبة فيها بعض أشجار من النخيل ، فيقول توبة : هيا بنا لنستريح فى ظلال هذه الأشجار .

شقيقه : لا ، انج بنا فالأعداء لن يسكتوا عن طلبك الآن بعد أن كان ما كان .

توبة : دعنا لنستريح ، وليقم قابض فى حراستنا ، فان رأى الأعداء أنذرنا لنأخذ استعدادنا للدفاع .

شقيقه : رأيي أن تسهر فالخطر سيحدق بنـــا ولا شك عما قليل .

توبة : دعنا فالله معنا ، وروح ليلى ، تحرسنا وليأت القدر بمـــا يشاء .

ثم يصعد فوق الهضبة ، وينزل من على جواده ، ويضع سلاحه وهو ينشد :

عذبتنا ليلى ونعم العذاب
وعذابى فى حب ليلى ثواب
إن ليـــلى المنى وكل نعيمى
إنها الحب والهوى والشباب
هى ألحانى فى الملا ونشيدى
وهى العيش والأمانى العذاب
هى سحر الحياة والأمل البـــا

سم عندی والحب والأحباب

هی نور بین الظلام مضیء
حفظتها عند الهوی الاحساب

أتراها أن مت ترثی شبابی
وتفی لی أم ود لیلی سراب

لودعت لیلی علی القبر باسمی
لاجابت لیلی الحصا والتراب

إن قلبی علی الوفاء مقیم
ودعاها لی فی الهوی مستجاب

* * *

فرسان العقیلیین فی طریقهم إلی حیهم فیمر علیهم أعرابی فیسألونه :

هل رأیت أحدا فی طریقك یاأعرابی .

الاعرابی : لا

الفرسان : كذبت .

الاعرابي : مثلي لا يكذب ولم أر والله إلا شبحا قائما فوق هضبة الصحراء .

فارس من القوم : انتظروا فسأتقدمكم إلى الهضبة ، لأرى من فيها ، وأعود اليكم بعد قليل .

القوم : نحن منتظرون .

الفارس يطير بفرسه نحو الهضبة .

قابض يوقظ توبة وشقيقه قائلا :

رجل قادم نحونا الآن ، وربما كان من الأعداء

توبة : رجل واحد .

قابض : نعم .

توبة : لا تبالي برجل واحد ، ثم ينام .

قابض يعود الى مكانه وتأخذه سنة من النوم فينـــام .

الفارس يتقدم ويطوف بالهضبة ، ثم ينظر فيرى وقابضا ، نائما فيصعد فوقها قليلا فيرى توبة

وشقيقه نائمين ، فيهبط ، ويعـــود مسرعا الى قومه ، ويبادرهم .

أبشروا، توبة ومن معه نائمون فى الهضبة الآن .

الفرسان يصيحون : سيروا ، فسنأخذ منه بالثأر ويطيرون نحو الهضبة .

فارس منهم يتقدم فيصعد فوق الهضبة ويقف على رأس توبة .

توبة يستيقظ هو وشقيقه فى رعب ، ثم يأخذ سيفه ، ويحاول أن يركب جواده ، فيفر منه فى الهضبة .

الفارس : الويل لك يا توبة .

توبة : الويل لك أيها الجبان .

ثم يضربه توبة بسيفه فيقع الفارس من على جواده صريعاً .

فارس آخر يتقدم ويصعد فوق الهضبة ،

فيجد صديقه مقتولا فيحمل بفرسه على توبة صائحاً .

لا حياة لك بعد الآن . ويحمل على توبة .

توبة وشقيقه يدافعان .

الفرسان يصمدون ، ويضربون توبة من خلفه فيخر صريعا وهو يقول :

روحى لليلى لليلى فداء فلتنعمى إن أمت بالحياة

الفرسان يحملون على شقيق توبة، فيضربه واحد منهم بالسيف فى ساقه ، فيقع على الأرض مغشيا عليه ، ثم يبحثون عن « قابض » فلا يجدونه ، فيهبطون من فوق الهضبة ، ويسيرون بخيولهم فى الصحراء .

قابض يسير على فرسه حتى يدخل حى توبة ويقف على رأس مسلم قائلا :

قتل توبة يا عماه .

مسلم : قتل توبة !! ومن قتله ؟

قابض : العقيليون قتلوه في الهضبة القريبة منا .

مسلم : يالهول المصاب، لابد أن نذيقهم الوبال والنكال،

قوم توبة يخرجون ، وأمامهم عمه ، ويسيرون حتى يصعدوا فوق الهضبة. فلا يجدون الاعداء، ويجدون توبة صريعا ، وشقيقه بين المـــوت والحياة .

القـــوم يسعفون شقيق توبة ، ثم يدفنون توبة في الهضبة ويقوم رجل منهم على قبره قائلا:

ودعتنا يا توبة وأنت في عهد الشباب وبين مسارح البطولة والمجد، عشت بيننا عظيما، وودعتنا كريما، فنم في عالم الأبدية خالدا مع الخالدين وامرح في جنان الخلد ، مع الشهداء والصديقين ، والويل لأعدائك أيها البطل الشهيد .

الجميع يبكون ويلتفون حول عمه قائلين:

عزاء أيها الأمير، فقد جل المصاب .

رجل يقف على قبره وينشد :

يا شهيد المجد نحن الفــداء
صرت فى المجد لدنيا الخلود
عز يا توبة فيك العــزاء
أنت قد أحييت مجد الجدود
بك يا توبة كان الفخــار
وبألحــانك كنــا نغنى
أقفرت منك العلا والديار
صرت يا توبة أطيب لحن
يا شهيد الحب بين البوادى
مت فى الحب هوى وهياما
يا صريعا مجده فى البلاد
كان مجداً للحمى وسلاما
أنت يا توبة رمز الوفاء
خالد الذكر مع الخالدينا
قد سقاك الحب كأس الشقاء

ومشى ذكرك فى العالمينا

يا شبابا قد كساه الجمال

لأعاديك سهام المنون

وحياة قد غذاها الجلال

قل فى مرثاك دمع العيون

* * *

المشهد الثالث

ليلى على قبر توبة

ليلى ومعها بعض صديقاتها فوق الهضبة وعيونهم مغرورقات بالدموع ، وتتقدم ليلى فتضع على القبر إكليلا من الرياحين ، ثم تقول :

السلام عليك يا توبة ، السلام على شبابك الناضر ، وخلقك النبيل ، وعهدك الجميل ثم تبكى ، وتنشد :

مات فى الحب شهيدا	من غدا فيه صفيا
مات فى الحب شريد	من سعى فيه صبيا
عاش فينـــا عبقريا	وهو فى عهد الشباب
عاش للحب وفيا	وتولى كالسراب
أين أيام الوصـال	أين أحلام الشباب
أين هاتيك الليالى	والامانى العذاب

أين ماضينا الجميل   أين تلك اللحظات
أين وادينا الظليل   أين تلك الذكريات
أين يا توبة عهـــد   قد قضيناه هياما
أين يا توبة عيش   كان بالحب سلاما
ذهب العمر وولى   ليته كان أقاما
لم نمتع فيه وصلا   وقطعناه سقـــاما
أنت بين الخالدين   وإمام الشهداء
أنت ذكر الذاكرين   مت فى عهد الوفاء

* * *

المشهد الرابع

وفاة ليلى

ليلى في قصر الحجاج واقفة في مجلسه العظيم تنشد :

يا أمير الوادى بلغت الامانى
بلغ الوادى فى العلا منتهاه
أنت عز الحى ومجد الزمان
أنت للشعب فخره وعلاه
بك نلنـــا المنى وكل الرجاء
وأعدنا فى الأرض مجد الجدود
بك أصبحنا فوق هام السماء
ومشينا الى العلا كالأسود
أشرق النور فى الحى والضياء
وانتهى الخير والسلام الينا

أنت أيها الأمير الرجاء

والأماني إن عز شيء علينا

دمت في المجد خالدا وعظيما

يتغنى بمجدك المشرقان

عشت في الناس سيد وزعيما

وحياة الأمير كل الأماني

. . .

الحجاج يصيح بحاجبه : هات لليلى عشرة آلاف دينار .

ثم يلتفت إليها قائلا :

قصي علينا حديث توبة يا ليلى .

ليلى : أيها الأمير حديثه بطولة ومجد وإقدام وشجاعة ، ومروءة وسخاء .

الحجاج : وما قصته معك يا ليلى .

ليلى : قصته معي حب ووفاء ، وجمال خلق وجلال دين

الحجاج : ثم ماذا يا ليلى .

ليلى : ثم لم يلبث أن مات ميتـــة الابطال فى أرض الصحراء فرثيته بكل ما فى عواطفى نحـــوه من تقدير ووفاء .

الحجاج : إنك لشاعرة وفية .

الحاجب يدخل فيناولها جائزة الأمير .

ليلى : شكرا لك وأكرمك الله أيها الأمير .

ثم تستأذن فى العودة ، وتخرج ، فتسير يصحبها زوجها وبعض الأصدقاء .

سوار ومن معه يخرجون ويضحكون ، وليلى فى كآبة تحدث نفسها قائلة :

ذهب الشباب، وبطل الشباب توبة ، فيا للأقدار ثم تبكى .

سوار : يا ليلى علام تبكين .

ليلى : دعنى يا سوار .

ثم تنظر فى فضاء الصحراء ، فتتراءى أمام عينيها الهضبة التى دفن فيها توبة ، وتقترب منها رويدا رويدا حتى تصل إليها ثم تقف :

سوار : سيرى يا ليلى ، فالطريق طويل .

ليلى : لا مسير حتى أزور قبر توبة .

سوار : انزعى من قلبك هذه الاوهام وسيرى قبل أن يدهمنا الظلام .

ليلى : لابد من الوفاء لعهد الأوفياء .

ثم تصعد بجملها فوق الهضبة ، وتقف أمام قبر توبة فتبكى وتقول :

السلام عليك يا توبة ، السلام عليك يا بطل الهوى العذرى ، ثم تسكت . ثم تقول :
ما لك لا ترد علينا السلام؟ ألست الذى تقول:

لو دعت ليلى على القبر باسمى
لاجابت ليلى الحصا والتراب

بعض الطيور المعششة فى الهضبة تطير فى وجه جمل ليلى فيذعر ويضطرب ، ويطير بليلى ؛ فيسقط بها من فوق الهضبة ، وتصعد روحها إلى السماء .

سوار ورفاقه يصعدون برفات ليـــلى ويدفنونها فى الهضبة بجوار توبة ، ثم يهيلون عليها التراب بين البكاء والانين ، ويقف على قبرها وينشد :

أين ليلى والشباب أين ماضيها الجميل ؟
عز يا ليلى المصاب ومضى العيش الظليل
ودعت ليلى الحياة فبكيناها طـــويلا
بلغ الحب منـــاه وغدت لحنا جميلا
كنت يا ليلى الرجاء كنت يا ليلى الامانى
اسكب الدمع رثاء لك يا أخت الحنان
إن ليلى بالوفاء ذكرها فى العالمين
روحها فوق السماء واسمها فى الخالدين

• • •

كلمة أخيرة

هذه قصة البطولة والحب فى حياة توبة الخفاجى وليلى الأخيلية .

وهى قصة جديدة فى الأدب العربى ، وأصولها موزعة بين كتب التاريخ والأدب القديم ، وقد ضمنتها كتابى المخطوط « توبة : حياته وشعره »

وقد حذفت من هذه القصة المشاهد التى تصور رحلة ليلى الى معاوية ثم مروان وعبد الملك والحجاج واشادتها فى مجالسهم بتوبة وقصة حبها ووفائها .

والله ولى التوفيق ؟

المسرحية . . والتاريخ

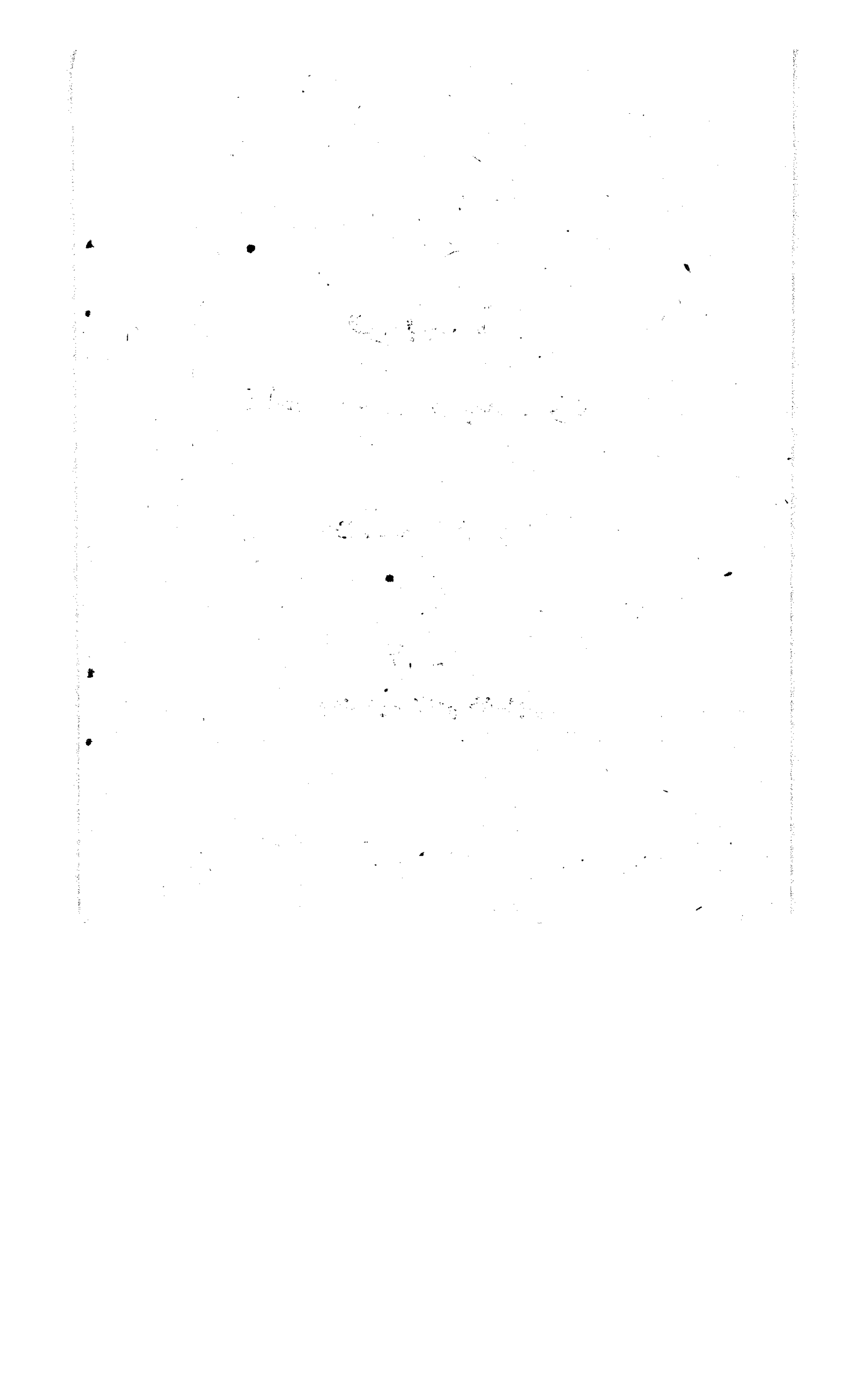
توبة

شاعر الحب والبطولة

دراسة وتحليل

تأليف

محمد عبد المنعم خفاجي



الكلمة الأولى

هذه بحوث، ودراسات مستفيضة، لحيـــاة البطل الشاعر توبة العامرى (٢٠ — ٥٧ هـ) وشعره.

كتبتها لتكون قصة بطولته وحياته وشعره فى أيدى الأدباء والشعراء والشباب، بعـــد أن نسيها الأدب وتناساها التاريخ وجهلها الناس.

وهى صورة كريمة للحياة العربية الأولى، فى سلمها وحربها، ولهوها وجدها، وفى روعة الوفاء، وجلال التضحية.

وها هى ذى تنشر فى هذا السفر لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى.

وما توفيقى إلا بالله.

المؤلف

حيـــاة الشاعر

(٢٠ – ٥٧ هـ)

قصة البطولة

حياة الشاعر صفحة من صفحات البطولة والمجد والآباء والشرف والتضحية والاقدام والعزيمة العربية المؤمنة بالكرامة والحرية.

شاب حالفته البطولة وحالفها ، فنشأ فى أرض الصحراء بنجد، بين رمال الجزيرة العربية وجبالها ، يحيا كما يحيا الشباب المترفون ، ينظم الشعر ، ويتوسط عقد أترابه ، ويقودهم من مغامرة إلى مغامرة ، ويدخل معارك الصحراء غازياً فينتصر ، إلى أن دخل معركة الحب والحياة ولكنه أخفق فيها ولم ينل آماله وأحلامه منها ، وفى ساعة من ساعات البطولة قضى حياته وهو بعد لم يبلغ الاربعين ، بكته الصحراء ، وبكته مسارح البطولة ، ومراتع اللهو ، ومعاهد الحب فيها ، ثم خلدت ليلاه قصة حبه ووفائه فى شعرها النسوى الرائع ، وفى أحاديثها عنه فى مجالس الخلفاء والامراء والولاة .

وذلك كله جدير بالدراسة والبحث وهو موضوع هذا الكتاب .

* * *

حيـــاة الشاعر

قبيلته ونسبه :

هو عربى صميم ، من أسرة عربيـــة صميمة ، احتلت مكانها الخالد بين القبائل العربية الكبيرة .

هو من البـادية ، وعاش هو وقبيلته فى صميمها ، وفطر على ما فطر عليه شباب البادية من خلق وبطولة وتضحية وإقدام .

ذلك هو توبة العامرى الخفاجى ابن الحمير بن ربيعة[1] بن كعب ابن خفاجة ، يصعد بحسبه حتى يصل إلى عقيل رأس العقيليين ، ثم يصعد حتى يبلغ عامرا رئيس العامريين، ثم يصعد حتى يدرك

---

(١) تشير بعض المصادر إلى أن اسم جـــد توبة هو حزم (٦٧و ٦٩ جـ ١٠ من الاغانى) ، وبعضها إلى أن اسم جده سفيان (٦٨ المختلف والمؤتلف للآمدى) وبعضها إلى أن اسمه ربيعـــة (٧٤ جـ ١٠ الاغانى) .

قيسا الأب الأول القيسيين ، فتوبة إذا من الخفاجيين العقيليين العامريين القيسيين ، وهو حسب رفيع يصله بذكريات المجـــد الخالدة ، التي حفلت بها أسفار التاريخ العربي القديم ، فوق أنه حسب يدرك غاياته ويصبغ طينته ويروى نهمه من المجد وعظمة القبيلة وسؤدد الاباء والأجداد، ويحيط به الفخار وخالد الذكر من جميع أطرافه .

عاش جده الثالث خفاجة بن عمرو بن عقيل بين مجـــد قومه وحسب أرومته من العامريين والعقيليين ثم تزعم قومه ، وساد عشيرته ، ووهبه الله ذرية ضخمة ، فصار بمجـــده : فى حسبه التليد ، وفى مواهبه وشخصيته الكبيرة العظيمة ، وفى ذريتـــه الضخمة من الشبان والابطال، حتى أصبح عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، ذائع الشهرة بين القبائل العربية التليدة .

ثم كان جده الثانى كعب كما كان جده القريب ربيعة بن كعب ابن خفاجة من فرسان قيس وأبطالها وعمرائها المعدودين .

ثم كان والده الخير شخصية كبيرة صاهر إليهـــا أشراف العقيليين ، واعتز بهـــا جميع الخفاجيين ، وقدر العرب جهادها

وبلاءها فى سبيـــل نشر الاسلام فى بلاده وما جاورها من البادية .

وكانت والدة توبة هى عامرة بنت والبة بن الحرث الأسدى من رجالات بنى أسد وزعمائها وكبار الشخصيات فيها ، وقد أشير الى اسمها فى الاغانى ، وفى موضع آخر منه يذكر ان اسم أمه زبيدة .

ذلك هو توبة ومجده الخالد فى أرومته العربية العزيزة .

كان موطن أسرة توبة فى البادية هو نجد مما يلى المدينة ، بجوار الكلابيين فى خناصرة والربذة ، وفى وسط أحيـــاء قبائل قيس وفروعها الكبيرة الضخمة ، من النميريين والعبسيين والعقيليين وسواهم من القبائل القيسية التى لعبت دورا خطيرا فى حيـــاة العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام .

وفى هذه البيئة العربية وفى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، ونحو عام ٢٠ هـ ، ولد توبة الخفاجى الذى كان فيما بعد حديث الجزيرة العربية ، وحديث البطولة والمجد فى حيـــاة العرب ، وحديث الحب العذرى والوفاء لهــذا الحب العذرى على لسان محبوبته ليلى الأخيلية ، وحديث السمر العذب فى قصور الأمراء والخلفاء والولاة .

ونحن حين نحدد عام ٢٠ هـ ميلادا لتوبة ، انما نعتمد على تراث ليلى الأخيلية ، وشعرها فيه ، الذى أنشدته معاوية خليفة بنى أمية العظيم ، حينما سألها عن قصتها مع توبة ، وعن سنه التى مات فيها فقالت ليلى :

أتتـه المنايا حين تم تمـــامه
وأقصر عنه كل قرن يناضله

وصار كليث الغاب يحمى عرينه
فترضى به أشبـــاله وحلائله

عطوف حليم حين يطلب حله
وسم زعاف لا تصاب مقاتله

فلم يلاق توبة حتفه إذاً إلا بعد أن استكمل شبابه وسارت به الأيام إلى عهد الرجولة القوية الجريئة المهابة ، كما تقول ليلى ، فإذا قدرنا عمره وقت مصرعه بسبعة وثلاثين عاما لا نكون في ذلك قد جاوزنا الصواب ، وإذا كان مصرع الشاعر عام ٥٧ هـ كما سنوضحه بعد ، فيكون إذا ميلاد توبة هو عام ٢٠ هـ أى قرب أواخر خلافة الفاروق عمر بن الخطاب .

ولد توبة فاستقبلته أسرته بضجيج من الفرح والبشر والسرور والتفاؤل بمستقبله المنشود .

* * *

نشـــأته

نشأ الفتى وشب فى الجزيرة العربية فى منازل قومه بنجد ، أطيب بلاد العرب جـــوا ، وأجملها مناظر ومشاهد وأحفلها بالبطولة وحياة الفرسان .

وأخذ يعيش بين مجد قومه وحسبهم ، ويتمتع بمظاهر السيادة والشرف التى كانت لقبيلته وأسرته .

وبدأ ينظم الشعر ويلهو ويسمر مع أترابه ولداته ، ويختلف الى مجالس الشعراء ويستمع الى روائع شعرهم وآثارهم الجليلة التى تصقل الذوق وتهذب الوجدان .

وبعد قليل أصبح هذا الفتى الناشىء بطلا من أبطال نجـــد وفارسا معدودا من فرسانها ، وشاعرا بليغاً من شعرائها المعدودين .

* * *

توبة وليـــلى

وليلى هى ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية الأخيل فارس الحدار بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة العامرى .

وكانت ساحرة الجمال، ناضرة الشباب . أحبها توبة ، ونظم فيها الشعر ، وأكثر من زيارتها ، فعاتبه أخوها وقومها ، فعاد اليهم خاطبا منهم ليلى فأبوا أن يزوجوه إياها .

وتزوجت ليلى سوار بن أوفى القشيرى [1] وذهبت ليلى الى بلاد زوجها ، فلم يصبر توبة على ألم فراقها ، فكان يذهب لزيارتها وأكثر من هذه الزيارات فلامه قوم ليلى وحى زوجها ثم شكوه الى قومه ثم لما لم يرجع رفعوا أمره الى السلطان ،

---

(١) ١٧٠ الشعر والشعراء . وفى الأغانى (٦٧ جـ ١٠): فى بنى الأدلع ، وفى فوات الوفيات : الاولغ .

فأهدر دمه إن أتاهم ، فكان يعمد الى زيارتها فى خفية وحينا يقتنع بإبلاغها سلامه مع أحد المسافرين نحــو بلاد زوجها ، وتربص له قوم زوجها يوما فرصدته ليلى فى طريقه فسفرت عن وجهها فعلم أنها تحذره شر قومها فرجع وهــو يقول من قصيدة :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت

فقد رابنى منها الغداة سفورها

الى آخر هذه القصيدة الرائعة .

وكانت ليلى احسن الناس جمالا ، وكان زوجها رجلا غيورا فاشتد فى حجابها وأمرها باعتزال الناس حتى كان لا يحل بها معهم ولا يقربها منهم أحــد ولا يأتى عندها بضيف. وقصتها وقصة زوجها مع الضيف الذى نزل ضيفا عليها والذى أهانها زوجها بسببه (١) قصة تدل على مدى هذه الغــيرة التى نماها فى نفس

---

(١) ٦٨ جـ ١٠ الأغانى .

زوجها بارع جمالها . وعلى كل حال فقد عاش توبة وعاشت ليلى في شقاء كثير بوفائهما الذى صار مضرب الأمثال بين الناس وظهر أثر هذا الوفاء لهذا الحب العذرى بعد قتل توبة فى مراثى ليلى الخالدة التى رثته بها وفى أحاديثها عنـــه فى مجالس الملوك والأمراء .

★ ★

قصة البطولة فى حياة الشاعر

وكانت قصة البطولة فى حياة توبة الخفاجى شبيهة بقصة حبه ليلى ، حتى لتكاد تكون من الأساطير ، وتجرى مجرى الأمثال ، وانتهت قصة بطولة توبة أخيراً بمصرعه ، كما انتهت من قبل قصة حبه بإخفاقه فى نيل محبوبته ليلى ، وخروجها إلى بلاد بعيدة ، هى بلاد زوجها ، الذى شاءت الأقدار أن يكون غير توبة محبها الوامق الوفى .

والبطولة فى حياة توبة نماها فيه فتوته وعزيمته ، وغذاها فى روحه ذكريات مجد آبائه وأجداده ، وأشعل قبسها فى صدره طموحه وحبه جميعاً .

وكانت تتمثل فى نضاله الحربى لخصوم قومه ومنافسيهم ، وفى هذه الغارات الكثيرة التى كان يشنها على قضاعة[1] وخثعم ومهرة

---

(١) كان يغير على هذه القبائل زمن معاوية وكانت بينهم وبين عقيل غارات .

وبنى الحارث بن كعب ، وسواهم من القبائل العربية ، التى كان بينها وبين بنى عقيل خصومات .

وكان توبة إذا أراد الغارة عليهم حمل الماء معه ثم يدفنه فى بعض المغارات ، على مسيرة يوم منهم فيصيب ما استطاع من أموالهم ، ثم يدخل المغارة فيعجز القوم عن طلبه فيها ، ولا يقدرون عليه وهو فى وسطها ، فينصرفون راجعين من حيث جاءوا ، وينصرف هو إلى بلاده وقومه .

وخرج يوما إلى الشام فمر بحى العذريين ، فرأته بثينة قبل أن يهيم بها جميل ، فجعلت تنظر إليه ، فشق ذلك على جميل ، وكان ذلك قبل أن يظهر حبه لها ، فقال له جميل : من أنت ؟ فقال : أنا توبة الخفاجى ، قال هل لك فى الصراع ؟ قال ذلك إليك ، فشدت عليه بثينة ثوباً مصبوغا بالورس ، فاتزر به ، ثم صارعه ، فصرعه جميل ، ثم قال هل لك فى السباق ؟ فقال توبة نعم ، فسابقه ، فسبقه جميل ، ثم قال له هل لك فى النضال ؟ قال توبة نعم ، فناضله ، فنضله جميل ، فقال له توبة يا هذا إنما تغلبنى

بروح بثينة ، ولكن اهبط بنا الوادى، فصرعه توبة وسبقه ونضله ، ثم خرج توبة إلى الشام ، فبينما هو يسير ليلة فى بلاد لا أنيس بها ولا سمير ، إذ أخذته سنة من النوم ، فأخذ ترسه فألقاه فوقه ، فلما وجد طعم النوم، إذا شىء عظيم قد هجم عليه ، وبرك فوقه ، فنفر توبة ، فرمى به على وجهه وجلس إلى راحلته، فانتضى السيف ، فضربه ضربة اختزله منها ، ثم عاد إلى موضعه، وهو لا يدرى ما هو، أ إنسان أم سبع ؟ فلما أصبح إذا هو عبد زنجى مصروع، ثم نظر فاذا ناقة العبد مناخة موقرة ثيابا ومالا، وبجوارها جارية ناهد موثقة ، ففك توبة وثاقها ، ثم سألها عن خبرها فأخبرته أن هـذا العبد قد قتل مولاها ، وأخذها منه فأخذها توبة ، ومضى بها وبما كان معه نحو بلاده وحى قومه .

وهكذا كانت حياة توبة قصصاً غريباً من البطولة مثلها فى أرجاء البادية العربية ، التى كان أظهر شخصية فيها ، وأول ممثل لحياتها فى عصره الذى عاش فيه ، وسترى الكثير من ألوان هذه البطولة فى قصة مصرع توبة بعد قليل .

مصرع توبة

— ١ —

كان ذلك نحو عام ٥٧ هـ في عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان، وكان توبة قد قارب نهاية العقد الرابع ، وهو في عظمته وعصر بطولته وفتوته ، أعظم شباب البادية العربية ، وأمجد شخصياتها ورجالاتها ، وكان أمير المدينة من قبل معاوية حينئذ هو مروان ابن الحكم ، الذى استعمل على صدقات بنى عامر شيخ العقيليين همام بن مطرف العقيلي ، ووقعت أحداث جسيمة انتهت بمصرع توبة ، ولم تطل حيـــاته الحافلة ، لأن البطولة دائماً قصيرة الأجل ، محفوفة بالمكاره والأهوال .

— ٢ —

كان بين قوم توبة الخفاجي وبين بني أعمامهم من بني عامر بن عوف العقيليين خصومة انتقلت عدواها إلى نفس توبة وأبناء عمومته .

واختصم الفريقان فى بعض أمورهم الى شيخ العقيليين همام بن مطرف العقيلى ، وكان توبة حاضراً مجلس الخصومة مع سادة قومه وأشراف عشيرته .

وفى فورة الخصومة ، وشدة المجادلة ، وحمية الغضب ، وثب ثور أحد رجالات بنى عامر بن عوف العقيلى على توبة الخفاجى ، فضربه بحديدة ، وعلى توبة الدرع والخوذة ، فجرحت الخوذة وجه توبة ، فرأى همام العقيلى الشر يتفاقم ، والمشاكل تتعقد بعد بعد إهانة ثور لتوبة ، فأمر ثوراً أن يقعد بين يدى توبة ، ليأخذ بحقه منه ، وكانت والدة همام من بنى عامر بن عوف ، فأبى توبة وقال :

يا همام ماكان هذا إلا عن أمرك ، وماكان ليجترىء على ثور عند أحد سواك ، وخرج توبة ، وهو عازم على الأخذ بثأره وكرامته ، وتبعه قومه الخفاجيون ، وكان ذلك نذيراً بخطب جسيم ، وشر متفاقم .

وتربص توبة لثور العقيلى ، حتى بلغه أن ثورا خرج فى جماعة من قومه ، إلى ماء من مياه العقيليين يقال له (قوباء) ، ثم ساروا يريدون ماء آخر لهم بموضع يقال له (جرير) بتثليث .

فخرج توبة هو وجماعة من أصحابه فى أثرهم ، يسأل عن ثور ، ويقتص أثره ، وعلم توبة أن ثورا فى ضيافة قريب له من بنى عامر بن عقيل يقال له سارية ، وكان سارية صديقا لتوبة ، فقال توبة :

والله لانتظرن الليلة قرب حى سارية ، حتى يخرجوا عنه ، وتربص توبة عن كثب ، وهو يبشر نفسه بهذه الفرصة المواتية .

وسمر ثور وأصحابه عند سارية العقيلى ، ثم تناولوا العشاء ، ثم عزموا على أن يخرجوا من بيت سارية إلى غايتهم التى يقصدونها حين ينبثق نور الفجر ، ويشرق ضوء الصباح ، فقال لهم سارية: يا قوم انى لا آمن عليكم الليلة من توبة فإنه لاينام

عن طلبكم ، وأرى من الخير لكم أن تسيروا فى جوف الليل فى هذه الفلاة ، حتى تنجوا جميعا من توبة وبطشه .

كان توبة قد أدركته سنة من النوم ، فأقام على الطريق رجلين من أصحابه ليترصدا قدوم ثور وقومه، وغفل الرجلان وخرج ثور ومن معه فانطلقوا فى جوف البادية مرتدين بظلمات الليل البهيم ، فلما كاد الليل أن يذهب فزع توبة من نومه ،فوجد صاحبيه نائمين ، وعلم أن ثوراً وأصحابه قد خرجوا من حى سارية ولم يصبحوا بهذه البلاد فاقتص آثارهم ،فاذا هو يرى على الطريق سمات هذه الآثار ، فنادى صاحبيه،وقال لهما : دونكما هذا الجمل فاحملا عليه الماء فى هاتين المزادتين الضخمتين ،ثم اتبعانى فى هذا الطريق .

وخرج توبة فى أثر القوم مسرعا ، حتى إذا انتصف النهار ، جاوز علما فى البادية ، فقال لأصحابه هل ترون هذه الشجرات البعيدة فى هذا المكان البعيد ؟ قالوا نعم ، قال فإن ذلك لابد أن يكون المكان الذى أوى اليه ثور ومن معه فى هذا الحر اللافح فى

هذه الظهيرة المتقدة نارا ، إذ ليس بعد ذلك المكان ظل فى البادية يأوى إليه إنسان ، فنظر أصحاب توبه وأمعنوا النظر ، فرأوا شبح رجل من قـــوم ثور ، يقف لهم على فم الطريق حارسا ومنذرا ، فخاف توبة ومن معه أن يذهب هذا الرجل فينذر قومه ، فلا يصيب منهم توبة غرضه المنشـــود ، فوكل به توبة اخاه عبد الله ، فانطلق بفرسه حتى دنا من الرجل ثم حمل عليه ولكن الرجل تخلص منه وانطلق مسرعا نحو قومه ينذرهم توبة وأصحابه ، فهبوا يستعدون للنضال والقتال ، وصفوا رجالهم ، وأخذوا سلاحهم ودروعهم ، وجعلوا هذه الشجرات التى كان يقيلون فى ظلها أمامهم ، وعلى حين فجأة غشيهم توبة وقومه ، فزحف اليهم ، واقتتل الفريقان ، وحمى وطيس المعركة ، فلم ينل أحد منهم من خصمه منالا ، ثم شدد توبة فى حملته ، وهجم على ثور فصرعه ، فأراد قومه أن يناضلوا دونه ، فحمل عليهم توبة وأصحابه حملة شديدة ووضعوا فيهم السلاح ، حتى تركوهم صرعى تتدفق منهم الدماء وصاح ثور وهو فى الرمـــق الاخير بتوبة : يا توبة انزع هذا السهم الذى يمزق اشلائى عنى ، فقال توبة : يا ثور ما وضعناه لننزعه .

وقال أصحاب توبة لتوبة : انج بنا ، فقد أخـــذنا ثأرنا ، ونلتى الماء الذى يتبعنا به الرجلان ، لندفع سورة الحر والعطش عنا، فقد كدنا والله نموت عطشا ، فقال توبة : كيف نسير ، وهؤلاء القوم صرعى وفى الرمق الاخير؟ ، فقالوا أهلكهم الله، قال توبة : ما أنا بفاعل ، وما هم إلا عشيرتكم ، ولكن ننتظر الماء حتى يجىء ، فنضع لهم ماء ونغسل عنهم دماءهم ، وننصب حواليهم راية كبيرة لتدفع عنهم الطير والسباع كيلا تأكلهم ، ثم ننطلق فأعلم قومهم بمصرعهم ، ليقوموا بتشييعهم ودفنهم .

وأقام توبة حتى أتاه الماء فسقى الجرحى وغسل عنهم الدماء ، وخيل عليهم من السباع والطير بما نصبه من الثياب على الشجر ، ثم مضى فى جوف البادية ، حتى وصل حى سارية المقيلى ، فأنبأه بمصرع قومه وقال لهم ادركوهم : من كان حيا فداووه ومن كان ميتا فادفنوه ، ثم انصرف توبة ولحق بقومه ، وصبح سارية القوم فوجد ثورا قد فاضت روحه ووجـــد أصحابه فى الرمق الاخير ، فاحتملهم جميعا ومضى بهم إلى حيه فى البادية حيث شيع جنازة ثور إلى مقرها الاخير وقام باسعاف اصحابه الجرحى أملا لهم فى الشفاء .

ثار بنو عامر بن عوف لمقتل ثور، وقام ابنه السليل، ينهض ليحمل عبء الأخذ بثأر والده المقتول ، وكان السليل بارعا فى الرمى ، كثير البغى والشر ، فاتكا يرهب الناس والمجتمع للعرفى فى البادية ، فأصبح توبة خائفا يخشى على نفسه منه ولكنه كان بطلا جريئا لايبالى بالسليل ولا بسواه .

وأخبر السليل بأن توبة فى قنة من قنان الشرف يقال لها قنة بنى الحمير ، فركب فى نحو ثلاثين فارسا وأخذوا توبة على غرة وفى حين غفلة ، فصعد توبة على قمة من قمم الجبل ، ليرمى القوم بنبله ، فأحاط السليل ومن معه بالبيوت ، ثم خافوا أن يفتك بهم توبة ، فأخذوا افراساً له ولأخوته ، وانصرفوا من غير أن ينالوا من توبة منالا .

وكان السليل نظير توبة فى القوة والبأس ، فأوعد توبة ، وأوعده توبة .

ثم التقى بعد قليل على غدير من ماء السماء فرمى توبة السليل فقتله ، وذهب دمه ، كما ذهب من قبل دم أبيه .

— ٥ —

وبعد غير قليل جمع توبة أصحابه ، وسار بهم ليغزو بنى عامر ابن عوف العقيليين ، فمر على عم من أعمامه ، وزعيم من زعماء عشيرته ، هو قلب بن حزن بن معاوية بن خفاجة (١) ، واخبره توبة بوجهته ، وقال له : اريد هؤلاء الصبيان من بنى عوف العقيليين ، فسكن قلب ثورة توبة ، وقال يا ابن اخى لا تفعل ، فان القوم سيناضلونك نضالا عنيفا ، نضال المستيئس الذى يفدى كرامته بروحه ونفسه فمهلا يا توبة ، قال توبة : والله لا اقلع عنهم ما حييت ، ثم ضرب بطن فرسه ، فاستمر يخطر ويثب حتى انتهى به إلى مكان ظليل يقال له حجر الراشدة ، فاستظل فيه توبة هو واصحابه ، حتى إذا كان وقت الظهيرة مرت عليهم

---

(١) راجع ٧١ جـ ١٠ الأغانى .

ابل هبيرة العقيلى اخى بنى عوف بن عقيل ، وهى فى طريقها لمورد ماء لهم اسمه طلوب ، فأخذها ، وخلى سبيل راعيها ، وقال له :إذا اتيت مولاك فأخبره ان توبة اخذ الابل .

وانصرف توبة ، ورجع العبد إلى مولاه ، وقص عليه قصته، وقصة توبة معه .

— ٦ —

ثار بنو عوف العقيليون ، واستكبروا وصمموا على الدفاع عن كرامتهم التى تكاد أن تلصق بالحضيض مما أنزله بهم توبة من خزى وعار .

وتعاقد نحو ثلاثين فارسا منهم على أن يطلبوا توبة وأن يذيقوه النكال والوبال .

وبعد قليل ساروا فى طلبه ، واتبعوا أثره فى البادية ، ولكن توبة سبقهم ، ونجا ورجعوا خائبين .

وسار توبة حتى إذا كان بالمضجع من أرض بنى كلاب وقف

رواحله ، وحبس أصحابه ، حتى إذا كان بشعب من هضبة يقال لها هند فى وسط المضجع من أرض بنى كلاب أقام صاحبه وابن عمته قابض بن عبد الله بن عقيل على رأس الهضبة يحرسه ويحرس أصحابه ، وقال له انظر فان ظهر لك شبح فاعلمنا، فقال عبدالله ابن الخير[1] شقيق توبة[2] له: يا توبة إنك حائر ، أذكرك الله ، فوالله ما رأيت يوما أشبه بيوم مصرع ثور من هذا اليوم ، فانج بنا إن كان بك نجاة ، قال توبة دعنى فقد أقمنا قابضاً على حراستنا ، وإينذرنا إذا ظهر خطر ، أو ادلهم شر ، وبعد قليل كان قابض يغط فى نوم عميق .

هـــذا شأن توبة ، أما خصومه من بنى عوف فإنهم حين لم يجدوا لتوبة أثراً رجعوا ، فلقيهم أعرابى فى الطريق ، فسألوه هل أحسست فى طريقك أثر خيل أو أثر إبل ، قال لا والله ، قالوا : كذبت ، وضربوه . فأقسم لهم أنه لم ير أثراً إلا زهاء كذا وكذا إبلا شخوصاً فى تلك الهضبة ،لا يعلم من أمرها وأمر

---

(١) بوزن كويس .
(٢) راجع ٧٤ جـ ١٠ الأغانى .

اصحابها شيئاً ، فبعث بنو عوف رجلا منهم لينظر ما في الهضبة فأشرف على توبة وقومه ، فلما رآهم رجع مسرعاً إلى قومه ، يخبرهم بمكان توبة وغفلته فسار القوم مجدين، وتقدمهم يزيد بن رويبة (١) وكانت أمه بنت عم توبة (٢) لحمل على القوم حتى غشى توبة ، وفزع توبة واخوه الى فرسيهما وحاول توبة أن يمتطى ظهر جواده ، فنفر منه ، وغلبه ، فلم يستطع أن يلجمه ، ولا وقف فى مكانه فخلى طريقه وغشيه يزيد ، فاعتنقه توبة وصرعه وهو مرهق وخر يزيد مضرجا بالدماء ، ودلف إلى توبة ابن عم يزيد ، واسمه عبد الله بن سالم ، فضيق على توبة الخناق ، وتوبة يدافع ويناضل ، حتى غشيه القوم من ورائه

---

(١) يزيد بن رويبة بن سالم بن كعب بن عوف بن عامر بن عقيل .

(٢) ٧٤ ج ١٠ الأغانى ولعلها هى صفية التى استجار يزيد بها وذكر توبة بصلات الرحم بينه وبينها لما شدد توبة عليه الخناق .

يضربونه بالسيوف والرماح، فأخذ عبد الله بن الحمير اخو توبة يطعن القوم بالرمح ، ويذود عن اخيه من كل جهة وكل ناحية ، حتى انكسر رمحـــه وخر توبة وسط المعركة صريعا مضرجا بالدماء ، بطعنة رمح عبد الله بن سالم ، ابن عم يزيد المقتول .

فلما فرغوا من توبة انهالوا على اخيه عبـــد الله يضربونه برماحهم وسيوفهم ، حتى قطعوا رجله فوقع على الارض فتركه القوم وولوا الادبار ، وهم يتجملون بنشوة الظفر بأخذ ثأرهم من توبة غريمهم الذى اهان شرفهم عدة مرات .

وشاهد قابض جميع هذه المعارك الدامية ، فولى مهزوما ، حتى لحق بعبد العزيز بن زرارة الكلابي من أبناء عمومة توبة ، وصديقه الحميم ، فأنبأه القصة ، وأخبره الخبر .

كان اصحاب توبة يومئذ ثلاثة : المحرز الكلابى احـــد ابناء عمومة توبة ، وقابض بن ابى عقيل الخفاجى ابن عمته ، وعبد الله الخفاجى اخوه لامه وأبيه ،فقتل توبة ، وقطعت رجل اخيه عبد الله وفر قابض مهزوماً ، ولا نعلم ما كان من امر المحرز الكلابى ، اقتل فى المعركة أم فر مهزوما ؟

روح الانتقام تسيطر على البادية

ولما علم عبد العزيز بن زرارة الكلابى بمصرع توبة ، جمع قومه ، وشاورهم فيما يكون،قال له ابوه زرارة ، ماذا تريد يابنى، قال أريد الأخذ بثأر توبة ، قال سمعًا لك : أتطلب بدم توبة أن قتلته بنو عقيل ظالما لهـــا عاديا عليها ، قال : فأذهب يا أبتى لأوارى جسده فى التراب ، وأترك عبء الأخـــذ بثأره لقومه الخفاجيين ، قال له زرارة : نعم ما رأيت يا بنى . فأتى السلاح، وانطلق هو وقومه فدفن توبة ، وأسعف أخاه عبد الله ، وحمله إلى حيه حتى تخف جراحه ، وتسكن آلامه .

ووقع نبأ مصرع توبة على بنى خفاجة وقوع الصاعقة،فجمعوا جمعهم لمحاربة بنى عوف العقيليين ، فلما بلغهم الخبر ارتحلوا من بلادهم إلى بنى الحارث بن كعب ، ثم تفرق الخفاجيون ، ونزعوا السلاح،فلما بلغ ذلك بنى عوف أيقنوا أن الفتنة هـــدأت، وأن

الأمر قد انتهى فعادوا إلى بلادهم ، فجمع لهم قوم توبة مرة ثانية أبطالهم وفرسانهم وحلفاءهم وأقاربهم ، وساروا بجيش لجب ، للأخذ بثأر توبة من بنى عوف العقيليين .

رأت بنو عوف ذلك ، وعلمت أن لا طاقة بحرب هـــذه القبائل ، فتركت بلادها وهاجرت إلى الجزيرة بالشام والفرات فأقاموا فيها ، ولم يبق بالبادية منهم أحد ، وأقام فى مواطنهم أبناء عمومتهم من العقيليين : بنو ربيعة بن عقيل ، وبنو عروة ابن عقيل .

ثم سار العامريون كافة إلى مروان بن الحكم والى المدينة لمعاوية بن أبى سفيان ، فرفعوا اليه الأمر وقالوا : ننشدك الله أن تسكن روح الانتقام الثائرة بين أحيائنا وعشائرنا ، فواسى مروان قوم توبة ، وفرض دية للمقتولين ، مائة من الأبل لكل مقتول كعادة العرب وشريعتها فى الديات، فأداها العامريون من أموالهم إطفاء لنار الخصومة والعداء بين أحيـــاء العرب ، ورجالات البادية من العامريين والعقيليين والخفاجيين .

ورجع عبـــد الله شقيق توبة بعد ذلك إلى قومه فلاموه ، وقالوا له : لم قصرت فى الدفاع عن أخيك . فأنشدهم قصيدته :

تأوبنى بعـازبة الهمـوم

كما يعتاد ذا الدين الغريم

فقلت لها رويدا كى تجلى

غواشى القوم والليل البهيم

ألمـا تعلمى أنى قديمـا

إذا ماشئت أعصى من يلوم

وأن المرء لايدرى إذا ما

يهم علام تحمله الهموم

إلى آخر هذه الأبيات المطبوعة حزناً .

★ ★

هذا وقد سجل صاحب الأغانى قصة مصرع توبة فى حديث أدبى رائع لايخرج عما ذكرناه وخلاصته :

أنه حدث بين توبة وبين بنى عامر بن عوف بن عقيل خصومة سببها اعتداء ثور العقيلى عليه فى مجلس همام بن مطرف العقيلى أمير بنى عقيل ومتولى صدقات بنى عامر لمروان بن الحكم فى خلافة معاوية وكان توبة وأسرته بنو خفاجة عند مطرف حينذاك فى خصومة بينهم وبين بنى عوف فطلب مطرف من توبة أن يقتص من ثور فأبى وخرج ثم تربص لثور حتى قتله ، وقتل أصحابه من بنى عوف معه فقال أصحاب توبة له : أنج إذا بنا بنا فقد أخذنا ثارنا ، فأبت نفسه النبيلة أن يترك القوم وهم فى الرمق الأخير صرعى وقال لأصحابه : ما أنا بفاعل وما هم إلا عشيرتكم ولكن يجىء الماء فنضح لهم ماء ونغسل عنهم دماءهم ونخيل عليهم من السباع والطير حتى لا تأكلهم ، وفعل توبة كذلك ثم انطلق إلى سارية العقيلى يخبره بمصرع القوم ثم انصرف توبة بعد ذلك كله ولحق بقومه .

فقام السليل بن ثور ليأخذ من توبة بثأر أبيه وكان السليل شريراً رامياً كثير البغى ، وهاج الشر بين الرجلين فاوعد كل منهما صاحبه وتلاقيا وتوبة بقنة من قنان الشرف فلم ينل منه السليل ثم التقيا بعد ذلك على غدير من ماء السماء فرمى توبة السليل فقتله ، ولم يكتف توبة بذلك بل ذهب ليغزوهم فنصحه قلب[1] ابن حزن بن معاوية الخفاجى ، ولكن توبة رفض نصحه وقال: لابد من أن أذهب إلى هؤلاء الصبيان من بنى عوف بن عقيل وسار توبة حتى انتهى الى مكان ظليل يسمى حجر الراشدة فاستظل فيه هو واصحابه حتى اذا كان وقت الهاجرة جرت عليهم ابل هبيرة بن السمين العقيلى اخى بنى عوف بن عقيل وهى فى طريقها لمورد ماء لهم اسمه طلوب فأخذها توبة وقال لراعيها : اذهب الى مولاك وقل له توبة أخذ الابل .

ثار بنو عوف لهذا العار الذى لحقهم فتعاقدوا بينهم نحوا من ثلاثين فارساً ثم ساروا يطلبون توبة ولكنه كان قد سبقهم

---

(١) راجع ٧١ جـ ١٠ الأغانى .

حتى أتى إلى المضجع من أرض بنى كلاب فنام فى الشعب فى هضبة يقال لها هضبة هند وأقام ابن عمته لحراسته ، ورجع بنو عوف ابن عامر ولكنهم علمـــوا وهم راجعون فى الطريق أن توبة بالهضبة فرجعوا إلى توبة وفاجأوه مفاجأة ففزع توبة وفزع أخوه عبد الله[1] من نومها ولكن يزيد بن رويبة بن سـالم بن عوف بن عامر بن عقيل[2] دلف اليه ثم تلاه ابن عم له اسمه عبد الله بن سالم فشد توبة على يزيد فطعنه فضيق عبد الله بن سالم على توبة الخنـــاق ثم طعنه فقتله وتلا حتى قوم بنى عوف ثم ضربوا أخا توبة عبد الله بن الحمير فقطعوا رجـــله وخر على الأرض صريعاً .

وانصرف بنـــو عوف وولى قابض مهزوماً حتى أتى إلى عبد العزيز بن زرارة الكلابى فأخبره الخبر فأتى إلى توبة فدفنه وضم أخاه ليسعفه من جراحه .

---

(١) هو عبد الله بن الحمير أخو توبة لأمه وأبيه ٧٤ جـ ١٠ الأغانى .

(٢) راجع قصة قتل توبه فى الأغانى ٦٧ — ٨٤ جـ ١٠

وقع نبأ قتل توبة على بنى خفاجة وقوع الصاعقة فجمعوا جموعهم لمحاربة بنى عوف فلما بلغهم الخبر ارتحلوا من بلادهم إلى بنى الحارث بن كعب . ثم تفرقت خفاجة ونزعت سلاحها فلما بلغ ذلك بنى عوف حسبو أن الفتنة هدأت وأن الأمر قد انتهى فعادوا الى بلادهم فجمعت لهم بنو خفاجة ثمانية قبائل بنى عقيل كلهم فلما رأت بنو عوف ذلك لحقوا بالجزيرة بالشام والفرات فنزلوها ، ثم إن بنى عامر رفعوا الأمر إلى مروان بن الحكم وهو والى المدينة لمعاوية فقالوا ننشدك الله أن تحكم بين قومنا فقد هاج بينهم الشر فعقل توبة وعقل الآخرين ، دية العرب، وهى مائة من الابل، فأدتها بنو عامر، ولم يبق بعد ذلك بالعالية أحد من بنى عوف .

* *

وهكذا انتهت قصة بطولة توبة بمصرعه وجرت وراءها آثارا دامية من الخلاف بين هذه القبائل العربية المشتبكة الأرحام ، كما انتهت قبل ذلك قصة حبه بإخفاقه فى نيل محبوبته ليـــلى وخروجها إلى بلاد بعيدة هى بلاد زوجها سوار .

ووقع نبأ مصرع توبة الخفاجى على ليلى كذلك موقع الصاعقة ولما بلغ ليلى خبر قتله قالت(١) :

لتبك العذارى من خفاجة كلها
شتاء وصيفا — دائبات — ومربعا
على ناشىء نال المكارم كلها
فما انفك حتى أحرز المجد أجمعا

---

(١) ٦٤ ج ١١ اختيار المنظوم والمنثور. مخطوط .

احاديث ليلى عن توبة

فى مجالس الخلفاء والامراء

ليلى ومعاوية بن أبى سفيان الخليفة

قدمت ليلى على معاوية فدحته وأعطاها خمسين من الابل ، ثم سألها عن مضر فقالت له : فاخر بمضر وحارب بقيس وكاثر بتميم وناظر بأسد ، ثم سألها عن خلق توبة فنفت عنه أكاذيب الناس عليه وقالت : كان يا أمير المؤمنين سبط البنان حديد اللسان شجى الاقران ، كريم المخبر عفيف المئزر جميل المنظر ، وكان كما قلت ولم أبعد عن الحق فيه :

بعيد المدى لا يبلغ القرن قعره

ألد ملد يغلب الحق باطله

فقال معاوية : ويحك يا ليلى يزعم الناس أنه كان فاجراً

فقالت :

معاذ النهى قد كان والله توبة

جوادا على العلات جما نوافله

أغر خفاجيا يرى البخل سبة

تحالف كفاه الندى وأنامله

عفيفا بعيدا الهم صلبا قناته

جميلا محياه قليـــلا غوائله

وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره

لديه أتاه نيـــله وفواضله

وقد علم الجدب الذى كان ساريا

على الضيف والجيران أنك قاتله

فإنك رحب الباع يا توب بالقرى

اذا ما لئيم القوم ضاقت منازله

يبيت قرير العين من كان جاره

ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فقال لها معاوية : ويحك يا ليـــلى لقد جزت بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين والله لو رأيته لعلمت أنى مقصرة فى نعته لا أبلغ كنه ما هو له أهل، فقال لها معاوية : فى أى سن كان ؟ فقالت :

اتته المنـــايا حين تم تمامه
وأقصر عنه كل قرن يناضله
وصار كليث الغاب يحمي عرينه
فترضى به أشباله وحلائله
عطوف حليم حين يطلب حلمه
وسم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر لها بجائزة ، وقال : أي ما قلت فيه أشعر ؟

قالت : ما قلت شيئاً يا أمير المؤمنين الا والذى فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدت حين أقول :

جزى الله خيرا والجزاء بكفه
فتى من عقيل ساد غير مكلف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها
عليه فلم ينفك جم التصرف
ينـال عليـات الأمور بهونة

إذا هي أعيت كل خرق مسوف

هو المسك بالأرى الضحاكي شبته

بدرياقة من خمر ميسان قرقف (١)

لیلى ومروان بن الحكم الخليفة الأموى

ولما دخلت ليلى على مروان قال : ويحك يا ليلى بالغت فى نعت توبة ، قالت أصلح الله الأمير والله ما قلت إلا حقا ولقد قصرت وما رأيت رجلا قط كان أربط على الموت جأشا ولا أقل ايحاشا يحتــدم حين يرى باب الحرب ويحمى الوطيس بالطعن والضرب كان والله كما قلت :

فتى لم يزل يزداد خيرا لدن مشى

الى أن علاه الشيب فوق المسايح

تراه إذا ما الموت حل بورده

ضروبا على أقرانه بالصفائح

---

(١) ٧٩ ـ ٨١ ج ٤ زهر الآداب ، ٧٩ و ٨٠ ج ١٠ أغانى . ٦٥ و ١٦٦ ج ١ معراج البيان .

شجاع لدى الهيجاء ثبت مشايح

إذا انحاز عن أقرانه كل سايح

فعاش حميدا لا ذميما فعاله

وصولا لقرباه يرى غير كالح

فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ما تقولين ؟ فقالت : والله ما كان للموت هائبا ولكنه كان فتى له جاهلية ولو طال عمره وأنساه الموت لارعوى قلبه ولقضى فى حب الله نحبه وأقصر عن لهوه ولكنه كما قال عمه مسلم :

فلله قوم غادروا ابن حميد

قتيلا صريعا للسيوف البواتر

لقد غادروا حزما وعزما ونائلا

وصبرا على اليوم العبوس القماطر

اذا هاب ورد الموت كل غضنفر

عظيم الحوايا ليه غير حاضر

مضى قدما حتى يلاقى ورده

وجاد بسيب فى السنين الكوادر(١)

---

(١) راجع ٨١ و ٨٢ ج ٤ زهر الآداب .

ليلى عند عبد الملك بن مروان[1]

وكانت ليلى الأخيلية قد حاجت النـــابغة الجعدى والحمته . دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت، فقال ما رأى توبة فيك حتى احبك ؟ قالت : رأى فى ما رأى الناس فيك حين ولوك الخلافة فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها[2]

وفى الأغانى رواية أخرى عن قدومها على عبد الملك[3] ولها أبيات فى الحماسة[4] .

---

(١) راجع أيضا فى ذلك (ص ١٢ حديقة الأفراح اليمنى طبعة عام ١٣٢٠ هـ ، ٥٣ - ٥٤ ج ١١ اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور مخطوط بدار الكتب .

ومحمد جورجى زيدان فى روايته « الحجاج بن يوسف » تاريخ وفادتها عليه بعام ٧٣ هـ .

(٢) ٨٦ ج ٤ زهر الآداب ، ١٧٠ الشعر والشعراء .

(٣) ٨٢ و ٨٣ ج ١٠ الأغانى .

(٤) ٦٢٣ ج ٢ حماسة أبى تمام طبعة صبيح .

ليلى والحجاج (1)

واستأذنت ليلى على الحجاج فأذن لها فدخلت ثم قعدت بين يديه وهي مسنة حسنة الخلق ومعها جاريتان لها فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له فقال لها : يا ليلى ما أتى بك ؟ قالت : إخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد وكنت لنا بعد الله الرفد . فقال لها : صفي الفجاج ، فقالت الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة والمبرك معتل وذو العيال مختل والناس مسنتون ورحمة الله يرجون وأصابتنا سنة مجحفة أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال ثم أنشأت تقول :

---

(1) ٨٠ - ٨٣ ج ١٠ أغاني ، ٨٣ - ٨٦ ج ٤ زهر الآداب، ٨٦ - ٨٩ ج ١ الأمالي ، ص ٨٠ مجموعة النظم والنثر ، ١٦٥ - ١٦٦ ج ١ العقد الفريد و ١٧٩ ج١ الكامل المبرد (الطبعة القديمة) .

أحجاج ان الله اعطاك غاية
يقصر عنها من أراد مداهـا
أحجاج لا يفلل سلاحك انها
المنايا بكف الله حيث تراها
أحجاج لا تعطى العصاة منام
ولا الله يعطى العصاة مناهـا
إذا هبط الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائهـــا فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله
دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة
أعد لها قبـــل النزول قراها
فما ولد الابطال والعون مثـــله
ببحر ولا بأرض يجف ثراها

فقال الحجاج : قاتلها الله والله ما أصاب صفتى شاعر منذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت اليها فقال : حسبك . قالت : إنى قلت أكثر من هذا . قال : حسبك ويحك حسبك ، ثم قال : ياغلام اذهب بها إلى فلان فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجام ، فالتفتت اليه فقالت : ثكلتك أمك ، انما أمر أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث اليه يستشيره ، فاستشاط الحجاج غضبا وهم بقطع لسانه، وقال اردها ، فلما دخلت عليه قالت: كاد والله أن يقطع مقولى ، ثم أنشأت تقول :

أحجاج أنت الذى ما فوقه أحـــد
إلا الخليفة والمستغفر الصمــد
أحجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت
وأنت للناس نور فى الدجى يقــد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هــذه ؟ قالوا لا والله أيها الأمير ، إلا لم نر قط افصح لسانا ولا احسن

محاورة ولا املح وجها ولا أرصن شعرا منها . قال هذه ليـــلى الأخيلية التى مات توبة الخفاجى من حبها ، ثم التفت اليها فقال: انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير، هو الذى يقول :

وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها

وقام على قبرى النساء النوائح

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها

وجاد لها دمع من العين سافح

الى آخر الأبيات . فقال زيدينا من شعره يا ليلى . فقالت : وهو القائل :

حمامة بطن الواديين ترنمى

وأنشدته الأبيات ، فقال الحجاج : يا ليلى ما الذى رابه من سفورك حيث يقول :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت

فقد رابنى منها الغداة سفورها

قالت : أيها الأمير كان يلم بي كثيراً فأرسل إلى يوما أني آتيك وفطن الحي فأرصدوا له فلما أتاني سفرت عن وجهي فعلم أن ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع فقال : لله درك ، فهل رأيت منه شيئاً فكرهته . فقالت : لا والذي اسأله أن يصلحك غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمـــر فأنشأت أقول :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيـــل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل
تخالك تهوى غيرها فكأنها
لها من تظنيها عليك دليـــل

فلا والله ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت بيني و بينه . قال: ثم مه . قالت : ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عم له أن اذا اتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى الصوت :

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة
من الدهر لا يسرى إلى خيالها

وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله
فعزت علينا حاجة لا ينالها

قال : ثم مه . قالت: ثم لم يلبث أن مات فأتانا نعيه . فقال:
أنشدينا بعض مراثيك فيه فأنشدته :

لتبك عليه من خفاجة نسوة
بماء شئون العبرة المتحدر

فقال لها فأنشدينا ، فأنشدته :

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ
قلائص يفحصن الحصا بالكراكر

فلما فرغت من القصيدة ، قال محصن الفقعسي وكان من جلساء

الحجاج : من الذى تقول هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة .
فنظرت إليه ثم قالت : أيها الأمير أن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا تكون فى داره جارية عذراء الا وهى حامل منه ، فقال الحجاج : هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غنيا ، ثم قال لها : سلى يا ليلى تعطى . قالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن.

قال : لك عشرون، قالت زاد فمثلك من زاد فأجمل

« : « أربعون « « « « فأكمل

« : « ثمانون « « « « فتمم

قال : لك مائة واعلمى أنها غنم . قالت : معاذ الله أيها الأمير أنت أجود جودا وأمجد مجدا وأورى زندا من أن تجعلها غنما .
قال : فما هى ويحك يا ليلى . قالت : مائة من الأبل برعاتها .
فأمر لها بها . ثم قال : ألك حاجة بعدها . قالت : تدفع إلى النابغة الجعدى . قال : قد فعلت . وقد كان يهجوها وتهجوه ، فبلغ النابغة ذلك فخرج هاربا عائذا بعبد الملك

فاتبعه إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعه على البريد بكتاب الحجاج الى قتيبة فمات بقومس ويقـال بحلوان (١) .

وأخيراً فهذا نهاية بحثنا عن توبة وقصة حياته الحافلة .

* * *

(١) راجع ٦٧ جـ ١ العمدة ط ١٩٠٧ .

مراثى ليلى فى توبة

القصيدة الأولى

ليـــلى فى رثاء توبة

١ ـــ قالت ليلى (١) :

نظرت وركن من بوانة(٢) دوننا
وأركان حسمى أى نظرة ناظر
لآنس إن لم يقصر الطرف عنهم
فلم تقصر الأخبار والطرف قاصرى
فوارس أجلى شأوها عن عقيرة
لعاقرها فيهـــا عقـــيرة عاقر

---

(١) راجع ٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧ جـ ٢ الكامل للمبرد ط التجارية .

(٢) « بوانة » من مياه بنى عقيل وحسمى جبل ببادية الشام

فآنست خيـــلا بالرقى مغيرة
سوابقها مثل القطا المتواتر
قتيل بنى عوف وبشر دونه
قتيل بنى عوف قتيل لجابر
توارده أسيافهم فـكأنما
تصادرن عن أقطاع أبيض باتر
من الهندوانيات فى كل قطعة
دم زل عن أثر من السيف ظاهر
أتته المنايا دون زغف حصينة
وأسمر خطى وخوصاء ضامر
على كل جرداء السراة وسابح
لهن بشباك الحـــديد زوافر
عوابس تعدو الثعلبية ضمرا
وهن شواج بالشكيم الشواجر

فلا يبعدنك الله توبة انمـــا
لقاء المنايا دارعا مثل حاسر
فإلا تك القتــــلى بواء فإنكم
ستلقون يوما ورده غير صادر
وإن السليل اذ يبارى قتيلكم
كرجومة من عركها غير طاهر
فإن تكن القتلى بواء فانكم
فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر
فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى
لقدر عيالا دون جار مجاور
ولا تأخذ الكوم الجلاد رماحها
لتوبة فى نحس الشتاء الصنابر
إذا ما رأته قائمـــا بسلاحه
اتقته الخفاف بالثقال البهازر

اذا لم يجد منها برسل فقصره
ذرا المرهفات و القلاص النواحر
قرى سيفه منهن شاسا وضيفه
سنام البهازيس السياط المشافر
وتوبة أحيى من فتاة حيية
وأجرأ من ليث بخفان خادر
ونعم فتى الدنيا وان كان فاجرا
وفوق الفتى ان كان ليس بفاجر
فتى ينهل الحاجات ثم يعلها
فيطلعها عنه ثنايا المصادر
كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ
قلائص يفحصن الحصا بالكراكر
ولم يبن أبرادا عتاقا لفتية
كرام ويرحل قبلهم فى الهواجر

فتى كان للمولى سناء ورفعة

وللطارق السارى قرى غير باسر

ولم يتجل الصبح عنه وبطنه

لطيف كطى السب ليس بحازر

ولم يدع يوما الحفاظ وللعدى

وللحرب يرمى نارها بالشرائر

وللبازل الكوماء يرغو حوارها

وللخيل تعدو بالكماة المشاعر

فتى لله تبنى بيتها أم عاصم

على مثله إحدى الليالى الغوابر

فليس شهاب الحرب توبة بعدها

بغاز ولا غاد بركب مساقر

وقد كان طلاع النجاد وبين اللسان

ومدلاج السرى غير فاتر

وكنت إذا مولاك خاف ظلامة

دعاك ولم يعدل سواك بناصر

فانْ يك عبد الله آسى ابن امه

وآب بأسلاب الكمى المغاور

فكان كذات البو تضرب عنده

سماعا وقد القته بين الجراجر

فإن تك قد فارقته لك غادرا

واني لحي غدر من في المقابر

فأقسمت أبكى بعد توبة هالكا

وأحفل من نالت صروف المقادر

على مثل همام ولا ابن مطرف

لتبك البواكى أو لبشر بن عامر

غلامين كانا استوردا كل سورة

من المجد ثم استوثقا في المصادر

وبيمى حيا أضحى يفيض نداهما

على كل مغمور ثراه وغامر

كأن سنا ناريهما كل شتوة

سنا البرق يبدو للعيون النواظر(١)

وبعض الروايات يزيد الأبيات :

طوت نفعها عنا كلاب وآثرت

بنسا أجهلوها بين غاو وشاعر

وقد كان حقا أن تقول سراتهم

لما لاخينا عائشا غير عاثر

ودوية قفر يحار بها القطا

تخطيتها بالناعجات الضوامر

---

(١) راجع ٧٥ و ٧٧ جـ ١٠ الأغانى ، ١٧٩ جـ ٨ الكامل شرح المرصفى ، ١٧٢ الشعر والشعراء .

دعـــاه الى مكروهة فأجـــابه

على الهول منها والحتوف الحواضر

فتى لا تراه الناب إلفـــا لسقيها

إذا اختلجت بالخناس احدى الكبائر



القصيدة الثانية

٢ — وقالت ليلى ترثيه أيضاً :

أيا عين بكى توبة بن حمـــير

بسح كفيض الجدول المتفجر

لتبك عليه من خفاجة نسوة

بمـــاء شئون للعبرة المتحدر

سمعن بهيجا أرهقت فذكرنه

ولا يبعث الاحزان مثل التذكر

كأن فتى الفتيان توبة لم يسر

بنجد ولم يطلع من المتغور

ولم يرد الماء السوام إذا بدا

سنا الصبح فى بادى الحواشى منور

ولم يغلب الخصم الضجاج ويملأ

الجفان سديفا يوم نكباء صرصر

ولم يعل بالجرد الجياد يقودها
بسبرة بين الأشمسات فيامسر
وصحراء موماة يحاربها القطا
قطعت على هول الجنان بمنسر
يقودون قبا كالسراحين لاحها
سراهم وسير الراكب المتهجر
فلما بدت أرض العدو حويتها
بخاظى البضيع كره غير اعسر
فألوت باعناق طوال وراعها
صلاصل بيض سابغ وسنور
ألم تر أن العبـــد يقتل ربه
فيظهر جد العبد من غير مظهر
قتلتم فتى لا يظهر الروع رمحه
إذا الخيل جالت فى قنا متكسر

فيا توب للهيجا ويا توب للندى

ويا توب للمستنبــح المتنور

ألا رب مكروب أجبت ونائل

بذلت ومعروف لديك ومنكر(١)

* * *

---

(١) راجع ٧٧ جـ ١٠ الاغانى و ١٧٧ و ١٧٨ جـ ٨ الكامل شرح المرصفى .

القصيدة الثالثـــة

٣ ـــ وقالت ترثيه أيضاً :

فأقسمت أرثى بعد توبة هالكا
وأحفل من دارت عليه الدوائر
لعمرك ما بالموت عار على الفتى
إذا لم تصبه فى الحياة المعاير
وما أحد حى وإن عاش سالما
بأخلد عن غيبتـــه المقابر
ومن كان مما يحدث الدهر جازعا
فلابد يوما أن يرى وهو صابر
وليس لذى عيش عن الموت مقصر
وليس على الأيام والدهر غابر
ولا لحى مما يحدث الدهر معتب
ولا الميت ان لم يصبر الحى ناشر

وكل شباب أو جديد إلى البلى

وكل امرىء يوماً إلى الله صائر

وكل قرينـــى ألفـــة لتفرق

شتاتا وان ضنا وطال التعاشر

فلا يبعدنك الله حيـــا وميتا

أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

فـآليت أنفك أبكيك ما دعت

على فنن ورقاء أو طار طائر

قتيل بنى عوف فيالهفتا له

وما كنت إياهم عليه أحاذر

ولكنما أخشى عليه قبيـــلة

لها بدروب الروم باد وحاضر(١)

---

(١) راجع ٧٨ جـ ١٠ الأغانى ، ٢٤٦ و ٢٤٧ جـ ٨ الكامل شرح المرصفى و ١٧١ الشعر والشعراء .

قصائد أخرى

٤ — وقالت ليلى ترثيه أيضاً :

كم هاتف بك من باك وباكية
يا توب للضيف اذ تدعى وللجار
وتوب للخصم إن جاروا وإن عندوا
وبدلوا الأمر نقضاً بعد إمرار
إن يصدروا الأمر تطلعه موارده
أو يوردوا الأمر تحلله بإصدار[1]

٥ — وقالت ترثيه أيضاً :

هراقت بنو عوف دما غير واحد
له نبأ نجدية سيغور
تداعت له افناء عوف ولم يكن
له يوم هضب الردهتين نصير[1]

---

(١) المرجع السابق .

٦ — وقالت ترثيه :

يا عين بكى بدمع دائم السجم
وابكى لتوبة عند الروع والبهم
على فتى من بنى سعد فجعت به
ماذا أجن به في الحفرة الرجم
من كل صافية صرف وقافية
مثل السنان وأمر غير مقتسم
ومصدر حين يعيى القوم مصدرهم
وجفنة عند نحس الكوكب الشم (١)

٧ — وقالت :

لعمرك ما الهجران أن يسقط النوى
ولكنما الهجران ما غيب القبر (٢)

---

(١) ٧٨ جـ ١٠ الأغانى .
(٢) ٢٨١ جـ ٢ العقد .

٨ — وقالت لقابض وتعذر عبيد الله أخا توبة :

دعا قابضاً والموت يخفق ظله
وما قابض اذ لم يجب بنجيب
وآسى عبيد الله ثم ابن أمـــه
ولو شاء نجى يوم ذاك حبيبي

٩ — وقالت ترثيه :

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت
حياض الندى زلت بهن المراتب
فعفاتها لهفى يطوفون حـــوله
كما انقض عرش البرء والورد عاصب

١٠ — وقالت تعتب على ابن عمه :

فلا وأبيك يا ابن ابي عقيل
تبلك بعـــدها فينـــا بلال
فـــلو آسيته لخـــلاك ذم
وفارقك ابن عمك غير قال

١١ — وقالت تمير قابضا :

جزى الله شرا (قابضا) بصنيعه
وكل امرىء يجزى بما كان ساعيا
دعا (قابضا) والمرهفات يردنه
فقبحت مدعوا ولبيك داعيا

١٢ — وقالت تميره :

ولما أن رأيت الخيل قبلا
تبارى بالخدود شبا العوالى
صرمت حباله وصدرت عنه
بعظم الساق ركضا غير آل
على ربد القــوائم أعوجى
شديد الأسر منكمش التوالى

* * *

١٣ — وقالت ترثي توبة :

وكم من لهيف محجر قد أجبته
بأبيض قطاع الضريبة مرهف
فانقذته والموت يحرق نابه
عليه ولم يطعن ولم يتذسف

١٤ — وقالت ترثي توبة :

ونعم الفتى ياتوب كنت ولم تكن
لتسبق يوما كنت منه توائل
ونعم الفتى ياتوب كنت إذ التقى
صدور العوالي واستشال الأسافل
ونعم الفتى يا توب كنت لخائف
أتاك لكي يحمى ونعم المنازل
ونعم الفتى ياتوب جارا وصاحباً
ونعم الفتى يا توب حين تفاضل

إذا حل ركب فى ذراه وظله

ليمنعهم مما تخـاف نوازله

حماهم بنصل السيف من كل فادح

يخافونه حتى تموت خصائله

١٥ — وقالت :

فيا توب مانى العيش خير ولا ندى

يعد وقد أمسيت فى ترب نفنف

وما نلت منك النصف حتى ارتمت بك

المنايا بسهم صائب الوقع أعجف

فيا ألف ألف كنت حيا مسلما

لألفاك مثل القسور المتطرف

كما كنت إذا كنت المنجى من الردى

إذا الخيل جالت بالقنا المتقصف

• • •

١٦ — وقالت :

أبى لك ذم الناس يا توب إنما
لقيت حمام الموت والموت عاجل
ولا يبعدنك الله يا توب إنما
كذاك المنايا عاجلات وآجل
ولا يبعدنك الله يا توب والتقت
عليك الغوادى المدجنات الهواطل

* *

آثار من شعر توبة

١ — قال توبة (١):

كأن القلب ليلة قيل يغدى
بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت
تجاذبه وقد علق الجناح
فلا بالليل نالت ما ترجى
ولا بالصبح كان لها براح

٢ — وقال توبة فى ليلى (٢):

نأتك بليلى دارها لا تزورها
وشطت نواها واستمر مريرها

---

(١) وينسب للمجنون (٣٨ جـ ٢ الكامل للمبرد).

(٢) ٦٩ جـ ١ الأغانى، ١٦٩ الشعر والشعراء و ٨٦ — ٨٩ جـ ١ من الأمالى، ١٣١ جـ ١ الأمالى.

حمامة بطن الواديين ترنمى
سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبينى لنا لا زال ريشك ناعما
ولازلت فى خضراء غض نضيرها
وأشرف بالغور اليفاع لعلنى
أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها
وكنت إذا ماجئت ليلى تبرقعت
فقد رابنى منها الغداة سفورها
على دماء البدن إن كان بعلها
يرى لى ذنبا غير أنى أزورها
وأنى إذا ما زرتها قلت يا اسلمى
وما كان فى قولى اسلمى ما يضيرها
وقد رابنى منها صدود رأيته
وإعراضها عن حاجتى وبسورها

يقـــول رجال لا يضيرك نأيها
بلى كل ما شف النفوس يضيرها
بلى قد يضير العين أن تكثر البكا
ويمنع منها نومها وسرورها
أظن بها خيرا وأعلم انهـــا
ستنعم يوما أو يفك أسيرها
وقد زعمت ليلى بأني فاجر
لنفسي تقاها أو عليها فجورها
أرى الليل يأتي دون ليلى كأنما
أتت حجج من دونها أو شهورها

٣ — ووجه توبة (١) صاحبا له الى بني عبادة بن عقيل قوم ليلى وقال اذا أتيتهم فاصعد في مكان مرتفع واهتف بهذا البيت:

---

(١) ولتوبة أيضا (١٦٦ ج ١ الأمالي):

عفا الله عنها هــل أبيتن ليلة

من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فعرفت ليلى الأمر فقالت للرجل :

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه

عزيز علينا حاجة لا ينالها (١)

٤ ـــ ولتوبة أيضاً (٢) :

قالت مخافة بيننا وبكت له

فالبين مبعوث على المتخوف

لو مات شيء من مخافة فرقة

لأماتني البين طول تخوفي

ملأ الهوى قلبي وضقت بحمله

حتى نطقت به بغــير تكلف

---

(١) راجع ٦٨ و ٦٩ جـ ١٠ الأغاني .

(٢) ١٦٦ جـ ١ الأمالي .

٥ — وقال توبة (١) :

أرى الناس من ليلاك سقها وقربها
حيا كحيا الغيث الذى أنت ناظره
ولو سألت الناس يوما بوجهها
سحاب الثريا لاستهلت مواطره
ومن يبق مالا عــدة وصنانة
فلا الشح يبقيه ولا الدهر وافره
ومن يك ذا عــود صليب يعده
ليكسر عود الدهر فالدهر كاسره

★ ★

(١) ٦٨ المؤتلف .

٦ — وقال توبة (١) :

وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها
وقام على قبرى النساء النوائح
ولو أن ليلى الأخيلية سـلمت
على ودونى تربة وصفـائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

* * *

(١) راجع ٨٢ ج ١٠ من كتاب الأغانى، ١٠٣ ج ٢ حماسة ٧٠ الشعر والشعراء ، ٨٦ ج١ وما بعدها الأمالى .

١ ـ وينسب لليلى :

نحن الذين صبحــوا الصباحا
يوم النخيل غارة ملحــاحا
نحن قتلنــا الملك الجحجاحا
دهرا فهيجنــا به أنواحا
ولم ندع لســارح مراحا
إلا ديارا أو دما مبــاحاً
نحــو بني خويلد صراحاً
لا كذب اليوم ولا مزاحاً.

٢ ـ وقالت ترثي عثمان :

أبعد عثمان ترجو الخير أمته
وكان آمن من يمشي على ساق
فلا تكذب بوعد الله وارض به
ولا توكل على شيء باشفاق
ولا تقولن لشيء سوف أفعله
قد قدر الله ما كل امرىء لاق

مكانة ليلى فى الشعر

ولليلى شعر كثير عدا ما مر لها فى هذا الكتاب تجده فى كتابنا لذى ظهر بأسم « ليلى الأخيلية الشاعرة » ، وهو موزع بين كتب الأدب والتاريخ : كالأغانى والأمالى والحماسة وشاعرات العرب والعقد الفريد واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور (مخطوط) وسواها من شتى مصادر الأدب العربى ، وفى الكتاب لسيبويه شواهد كثيرة من شعر ليلى الأخيلية .

وكانت ليـــلى من النساء المتقدمات فى الشعر من شعراء الاسلام ، كما يقول صاحب الأغانى .

وهى من أشعر النساء لا يقدر عليها إلا الخنساء كما يقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، وكانت فصيحة جميلة شاعرة مقدمة حافظة لأنساب العرب وأيامها وأشعارها ، واشتهرت بحب توبة الخفاجى ، وكان توبة مبرزا فى قومه سخيا فصيحا مشهورا

بمكارم الأخلاق، وله فيها قصائد غرر ولها فيه مراث كثيرة، كما يقول صاحب كتاب شاعرات العرب، «وكانت ليلى والخنساء بائنتين فى اشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، ورب امرأة تتقدم فى صناعة وقلما يكون ذلك، كما يقول المبرد (٢٧٩ ج ٢ الكامل طبعة التجارية)، وكان الاصمعى يقدم ليلى الأخيلية، كما يقول الحصرى (٧٠ و ٧٦ ج ٤ زهر الآداب).

وتوفيت سنة ٨٠ هـ، وجدها كعب، وسميت الاخيلية بقولها وقيل بقول جدها كعب:

نحن الاخايل ما يزال غلامنا
ـ حتى يدب على العصا ـ مذكورا

إلى آخر هذه الأبيات (١).

---

(١) ٣٤٣ معجم الشعراء.

وكانت ليلى راجزة أيضاً (١).

قال أبو زيد (٢) :

ليلى أكثر تصرفاً وأغزر بحراً وأقوى لفظاً والخنساء أذهب غوراً فى الرثاء » .

* * *

(١) ٩٧ المؤتلف .

(٢) ٧٠ و ٧٦ ج ٤ زهر الآداب . وأبو زيد هو أبو زيد الأنصارى م ٢١٥ هـ .

مصادر البحث

وهى كثيرة منها :

الأغانى الجزء العاشر - الشعر والشعراء لابن قتيبة - المؤتلف والمختلف للامدى - زهر الاداب - الكامل للمبرد - فوات الوفيات - العمدة لابن رشيق - العقد الفريد - شاعرات العرب - تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق - اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « مخطوط » - أمالى الزجاجى - أمالى القالى - بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى - الحجاج بن يوسف الثقفى لجورجى زيدان - ليلى الأخيلية للمؤلف — الخفاجيون فى التاريخ - دراسات فى الأدب فى أزهى عصوره ، وهما للمؤلف

إلى غير ذلك من شتى المصادر ؟

خاتمـــة

وبعـد فهذا هـــو « توبة شـــاعر الحب والبطولة » ، أقدمه إلى قراء العربية ، والمتعطشين إلى ثقافتها ، والظامئين إلى آثارنا الأدبية القديمة .

وهو أول بحث ينشر عن حيـاة توبة الشاعر وبطولته وقصة حياته وآثاره الأدبية ، وقد بذلت مجهوداً كبيراً في سبيل كتابته وتأليفه .

وأحمد الله على توفيقه ، وأسأله العـــون والسداد انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

فهرست نشيد الصحراء

شاعر البطولة

توبة ـ حياته وشعره

المسرحية والتاريخ (٩٢ - ١٧٦)

محمد عبد المنعم خفاجى

ديوان

أحلام المساء

شعـــر

رابطة الأدب الحديث

دواوين للشاعر:

وحى العاطفة	١٩٣٦
أحلام الشباب	١٩٤٩
« السراب	١٩٦٩
نغم من الخلد	١٩٧١
الديوان الإسلامى	١٩٧٣
على الضفاف	١٩٨١
أشواق الحياة	١٩٨٣
ملحمة السيرة النبوية الخالدة	١٩٨٦
أغنيات من عبقر	١٩٨٧
نشيد الذكرى	١٩٨٨
نشيد الصحراء ط ١	١٩٤٧
ط ٢	١٩٨٨
أحلام المساء	١٩٨٨

ليـــلة العيـــد

أنا مالى أنا وللأيام
منحتنى العبوس بعد ابتسام
وكأنى والعيش حلم خيال
عدت أحيا الخيال فى الأحلام
وخصام بين الزمان وبينى
كيف يا قلب أصطلى بالخصام ؟
قدرى أنى عشت دهرى نزالا
عشته فى جدى وفى آلامى
لم يهادنى الدهر طرفة عين
فبقلبى السهام تلو السهام
كلما عدت للسلام أناجى
طيفه عادى عهده بالسلام

ومشى زورق وحيداً غريباً
بين موج وعاصف فى الظلام
والشراع القديم قد مزقته
فى الأعاصير الهوج كف الرامى
مرحاً عاش ثم خر صريعاً
أسلم الروح فى الصراع الدامى
كان لى الأمن والمنى فاصطفته
بعد صفو الحياة أيدى الحمام
يا فؤادى ويا رفيق كفاحى
لم أضق ذرعاً بعد بالأيام

* * *

ومضى عام بعد طول اغتراب
بعد ضيق ويا له من عام
كان عاماً طالت لياليه فى غر
بة عمرى ، وليس كالأعوام

ليلة العيد ما تزال بذكرا

ها اظلى فى فؤادى المستهام

فى دجاها ودعت أغلى كنوزى

وسدت كفى ظله فى الرغام

وبكيت الآمال ولت سراعاً

مثل برق أو مثل طيف المنام

عدت للمخدع الحزين غريباً

فى دجى ليلتى وفى أسقامى

أين منى ذاك الأنيس ووجه

كان حلمى فى ليل عيشى الجهام ؟

أين منى دنياى ؟ لم يبق ظل

لمنى ، لم أعد بكفى زمامى

شبحاً عدت مثل أشباح بيد

أرتدى فى الخفاء ثوب المرائى

يا فؤادى بينى وبينك عهد

أن نعيد الأيام للأيام

كلما امتد الليل جاء صباح

فى ضياء الزهور فى الأكام

مثلا للوفاء فلتحى يا قلـ

ـب وفيا بقية الأعوام

عشت أحلامك الكبار حفيظاً

لخلال الحسنى ورعى الذمام

فامض فى مشرع الوفاء حفيا

بالضياء الوريف لا الأوهام

* * *

الحمام : الموت . الرغام : التراب . الجهام : العبوس .

البيد : الصحراء . الموامى : جمع موماة وهى الفلاة المقفرة .

الذمام : العهد .

الزورق الحائر

غاب عنى وجهه المشرق غابا
أصبحت من بعده الدنيا سرابا
ذهبوا ليتهم ما ذهبوا
لست أدرى كيف قد شاءوا الذهابا
آه منه يوم الاثنين ، وصا
ر به عشى على الانس يبابا
ولقد مرت ثوانيه القصا
ر طويلات تبارى الاحقابا
كان ما كان وشاء الله أن
يطوى البين المرير الأسبابا
سار واختار الخيار الصعب من
لم يكن يجفو ويسلو الأحبابا

حكمة الله تعـــالى وما
شاءه كان ، ويحي الأصلابا
هو أدرى أننا نجهل حــكـ
ـمته العليا ولا ندرى الصوابا
يا حيـــاتى كل شيء قدر
نحن لا ندرى ثوابا أم حسابا ؟
كنت عندى كل شيء ورحيـ
ـلك أنسانى حياتى والرغابا
لم يعـــد لى مطلب أطلبه
كنت مجدى، كنت روحى، والطلابا

لم يعد لى فى حياتى أرب
يا حياتى ، أنت كنت .. الآرابا

كنت لى الكنز وأغلى ، ولكم
أنت ذللت المنى لى والصعابا

كنت عندي الدر والجوهر والـ
ـعيش محوداً جميلا مستطابا
كنت عندي الكوثر العذب، وحو
رية الجنة ، والغيد العذابا
كنت لى النور يضيء الأفق، والـ
ـليل ساج ، والدجى عم الشعابا
كنت لى المرفأ يرسو زورق
عنده ، يأمن فى البحر العبابا
كنت لى الكهف الذى لذت به
وأنا أطوى الفيافى والهضابا
يا ملاكى لم أعد أحذر دنيـ
ـاى ، قد عفت طعامى والشرابا
عفت أوراقى ، وكتبى ، ومحا
رب دهرى ، ومهادى، والصحابا
يا ملاكى ذهب العمر سدى
وطوى الدهر رجائى والشبابا

ظل فألى يفتح البــاب له
وشقائى كان يطوى الأبوابا

يازمانى ذقته من راحتك الـ
حلوة الشهد فصار الشهد صابا

إن من كان يساقينى المـنى
آثر النأى وولانى اغترابا

ليس يدرى أنه خلفـنى
أقطع العمر على النأى انتحابا

أبداً أسمعه ، أبصره
أبداً أذكره والعيش طابا

أذكر الماضى الذى كان لنا
ثم ولى ، لم ولى ؟ لم غابا ؟

قدر فرقنا من بعد ما
ذهب العمر وشعر الرأس شابا

عصرتنى يد آلامى ، وكم
أنا فى ظلك طاولت السحابا
فإلى أن نلتقى مغفرة
يا حياتى ، لا عتابا ، لا عتابا
إن حذرت البين يوماً فلقد
بت فى فرط الامى أشكو المصابا

* * *

كان حلمـــا

نصف عام مضى ، مضى يا حبيبي
أنا فيه فى وحدتى كالغريب
نصف عام أو نصف قرن سواء
الأسى فيه والشجا من نصيبى
كنت لى مؤنسا ، وكنت ضياء
لظلامى ، وإلف عشى الجديب
أى شىء لى يا حيـــاتى يبقى
بعدكم غير عـــبرتى ونحيبى
ليس لى فى الدنيا سوى الألم القا
سى، سوى الذكرى، ثم عيشى الكئيب

ليس لى فيها غير صورتك الحلـ
ـوة فى خاطرى وقلبى السليب
كنت سلواى فى هجير حيـــاتى
وأنا أسعى للنى فى الدروب
كنت كل الرؤى وحـــلم الليالى
فى شبابى ، بجانبى ، والمشيب
وعلى ثغرك ابتسامات قلب
ليس إذ يدعوه القلى ، بمجيب
مضت الأيام الجميلة واهـــا
لغدى ، واها للزمان الرهيب
يا فؤادى الحلم الجميل انتهى والـ
أمل الدانى صار غير قريب

* * *

لست أدرى ماذا الصنيع؟ وقلبى
يشتكى من لفح اللظى واللهيب
غابت الحلوة الرفيقة غابت
ونهايات شمسنا للمغيب
والهزار الوديع وهـــو يغنى
لحنــــه صار مشبها للنعيب
آه من يوم مر بى كان دهراً
ياله من يوم كريه عصيب
انتهى فيه كل شىء وصارت
فيه دنياى للأسى والشحوب
وتوليت والدموع على وجهى
كسيل ثر الشؤون صبيب
أنا فزت منى السعادة إلا
حين ألقاك فى منامى الرحيب

وأناجيك طيف حلم جميل
وخيالات فجر عصر عجيب
قد مضت أحلامى وشمس حياتى
فى وداع ضافى الجلال مهيب
كان حلما أفقت منه وذكراه
تناديني فى الضحى والغروب
وبيومى وفى غدى سوف أحيا
فى رؤى أمسى، فى صداه الحبيب

• • •

لحـــن وداع

من أنت يا روحى ويا حلمى ؟
من أنت يا أحــلى من النغم
يا نجمة فى الأفق جن بها الدجى
وبدت ضياء صباى فى الظــلم
يا كم بدت لمشاعرى الحيرى على
أمل أرجيـــه ، وفى الألم
عاشت سنا دنياى فى ألق الشبا
ب ، وبعده ، والأنس فى الهرم
خيرتها فاخترتها ، ما كان لى
فى ذاك إلا أنها قسمى

أسطورة جاءت من الزمن البعيد
ومثلت إيزيس فى القـــدم
ظلت بكل كيانها أملا يضىء
دروبه كرم على كرم
ومضت بكل صفاتها مثلا لكل
مآثر الاحساب والشيم
عبقت كزنبقة الرياض بشاشة
تختال فى برء وفى سقم
بقيت حكاياتى تثير شجونها
وتهز من أعماقها كلمى
ما بين منتصر أعود لظلها
فرحا ، وبين عذاب منهزم

* * *

ياكم سهرنا الليل نفترش للتى
وعلى التراب نخطى لم أنم

وتعيد بسمته لى الأمل الحالى
وينتهى بحنانه ألمى
فرحى بكل فلول سعى مثله
- بجميع ما صنعت يدى - ندمى
باك أسيف إن بكيت ، وضاحك
إن جئته فى زهو مبتسم
وحديث أحزانى وأفراحى الغناء
له ، أغنيها شجى بفمى
وصرير أقلامى وأوراق أنيس
منامه ، تعسا له قلبى

* * *

يا من يعز على الأليف فراقه
هذى حياتى اليوم كالعدم
وبقيت فردا فى مسارب وحدة
أنا أملتها غيبته بدمى

ومضى يشق طريقه ، اختار النوى

يا ليت حول حماه لم يحم

قد عدت لا أجد الذى أشكو له

دنياى ، أو أحكى له همى

لم ابق لى بين الدروب ملاعب

وثنيت عن جناتها قدمى

حولت عن أطيافها طرف المنى

إذ لم أجد عونى على هرمى

العمر رحلة سائح متصوف

ويضيق لولا فسحة الحلم

يا قلب دمعى ملء طرفى ، والأسى

فى مهجتى ، والصبر ملء فمى

صبرا ، فلست على الحياة مهيمنا

وعلى همومِ الدهر فابتسم

ما أضيق الدنيا على القلب الحزين

فبالإله تعز واعتصم

على مبارك باشا فى ذكراه

فوق أرض المنصورة الأفراح

ولها من مسعى بنيها وشاح

ولها فى التاريخ ماض عريق

ولها فى العـــلا ندى وسماح

يا عروس النيل المواكب سارت

لا تخيف المواكب الأشباح

وبسعد وصحبه تبلغين الـ

ـمجد ، تنأى عن أهلك الأتراح

فى حماك الأشاوس الصيد قاموا

ضمهم فى حب الحمى الإصلاح

جمعتنا ذكرى ابن مصر (على)

مثلما يجمع الخوافى جناح

عبقرى فى جيله لمـــاح

رفعتـه مواهب وكفاح

خاض ما خاض من معارك نيا

ه ، وللدائب المجد النجاح

فى بونبال كان طفلا صغيرا

فى ثراها غدوه والرواح

كان يشدو بحب قريته فى

سحر عينيه أرضها والبطاح

لم ير النور فى أزقتها

لـكنه فى حجاه كان الصباح

كيف ننسى يدا رعته صغيرا

وهو فى قلبه الحزين الجراح

وقلوبا تحوم عطفا عليه

وهموما فى ظلها تنداح

يا عليا مباركا أنت فى وجـ

دانتا فى ليل الاسى المصباح

يا أبا التعليم المدارس قامت

بأياديك وابتدا الإصلاح

لك دون الناس أفق فريد

هو وقف عليك لا يستباح

عبقرى وأين منه العبقريو

ن ومن فيض روحه الإصباح

أيقظته قضية الوطن الدا

مى وفى كف خصم مصر الرماح

قابرى يحمل الأمانة لا يثـ

ـنى خطاه التهديد والإفصاح

لم يزل يشحذ العزائم حتى

ضاق فيه اللوام والنصاح

وتمادى فشردته رياح

وتلقته فى الخطوب رياح

كشر الإحتلال عن مخلبيه

وارتوى من دم الكفاة الساح

وتلاق فى ساحة المجد شعب

شاء إفناءه الغزاة فطاحوا

لا تسلنى عن الألى حاربوه

تعب الباحثون والشراح

كيف تنجو من العواصف فلك

لا يبالى بأمرها ملاح

كلنا ظامىء وأين الراح؟

كلنا مدلج وأين الرواح؟

يا عليا مباركا يا ابن مصر

فى الحمى ذكرك العلا فواح

خشعت فى مزارك الأرواح
وتندت على ثراك الرياح
يا عليا مباركا حى مصرا
ليس يحييها فى الحياة الكفاح
أبدا حبك العميق لمصر
ملء وجدانك الهدى والصلاح
وبنيت الفخار ، كم كنت تبنى
كل من فى الحى شهود فصاح
كرم الذكرى سعد مصر فرحى
لسكا فى العلا خطى وارتياح
يا عليا مباركا أنت حى
وبذكراك شعبنا صداح
لاح من رمسك الضياء لمصر
وجماهير الشعب بالخير راحوا

* * *

توفيق الحكيم فى ذكراه

مصر ترنو إليك والمهرجان
وبذكراك بات يشدو الزمان
مصر فى قلبك الكبير هى المجد
هى الحب والهوى النشوان
مصر فى ثغر الدهر أغنية خضراء
غنتهـــا فى الضحى الوديان
مصر فى تترك الرفيع هى اللحن
هى الدنيا والمـــنى والأمان
كاتب الشعب يا ابن مصر ومن غنت
مثانيه فى الورى الركبـــان

نثرك الباذخ البليغ هو الحر
ية الكبرى ، بل هو الإنسان
هو للشعب الحلم والأمل الباسم
والنور والمـــنى والحنـــان
وتناهى إليك كل بديع
وتدانت منك المعانى الحسان
وأقرت لك الحياة بسبق
ومشت خلف ظلك الإحسان
أهو السحر ما كتبت أم الشعر
وآذار اللحن أم نيسان ؟
وعلى مفرقيك تاج من الخلد
وفى يمنى كفك الصولجـــان
إيه توفيق يا أمير المعـــانى
ليس ينساك فى الحمى إنسان

يا أبا المسرحية انطفأ المصباح
ماتت من بعدك الألحـــان
أيها الكاتب الكبير لك الحمد
عليك الجلال والتيجان
لك نثر على العصور جديد
وحوار يختال فيه البيـان
فيه توفيق فى حوارك سحر
هو للفن دائماً عنوان
هذه «عصفور من الشرق» تحكى
كيف قد هزتك العذارى الحسان
والحضارات كيف عاشت ومدت
ظلها ثم قد خلا الميدان
كلها من حضارة الشرق ظل
من غمامات الشرق ذا الطوفان

« عودة الروح » لن تغيب طويلا
عن حمانا فشعبنا يقظان
هيه توفيق يا ابن مصر لك الحسنى
وحيتك فى الورى الأوطان
أنت لحن على العصور جديد
بعدما ماتت فى الفم الألحان
لتظل الذكرى بها يخفق القلب
ويحيا بروحها الوجدان
مصر تشدو بها الغداة طويلا
ولها اليوم كان ذا المهرجان
هى للناشئين سر طموح
وبها طاف بالخلود الزمان

• • •

في ذكرى نصر أكتوبر

الله أكبر

الله أكبر ، هذه مصر
وديانها ومروجها الخضر
أبطالها وجنودها ، ولهم
بشهادة الدنيا لهم فخر
« بارليف » والعلم الذى رفعوه ، ومعجزات الحرب ، والنصر
« طابا » ويا فرح البلاد بها
ولقد شدت فرحا بها مصر

• • •

الله أكبر ، هذه مصر
أنشودة غنى بها الدهر

حطين ، جالوت ، المعارك من
قدم لمصر وجيشها الأمر
ورشيد تلك ، وبورسعيد ، وسيـ
نا ، والسويس ، مفاخر كثر
هي في سجل مآثر الوطن
الحر الحبيب ، ومجده ، سطر

. . .

الله أكبر ، هذه مصر
ولها على طول المدى الشكر
يا دار لقمان الفخار ، مضى
في جانبيك الطيش والغدر
و«لويس» في القيد الحزين ، على
خديه سال الذل والقهر

وتعطلت آماله ويـــدا
الشعب العظيم كأنه الصخر

. . .

الله أكبر ، هذه مصر
ولها علينا الحب والذكر
«منصورتى» وشهدت سيل دم
الأعداء فيك كأنه النهــــر
أكتوبر يروى مفاخرك ا
الأولى ، ويروى النثر والشعر
جزت بطولتك الزمان وما
مس الحمى وبنى الحمى ضير

. . .

الله أكبر ، هذه مصر
لله فى تاريخهـــا ســـر

عنت الجباه لها ، فما لعظيـ
ـم قدره فی مجدها قدر
« منصورتی » ولجیش مصر علی
شطيك مجد خطه سفر
مصر ما أسنى مآثرها
هی للغزاة على المدى قبر

* * *

الله أكبر ، هذه مصر
وطنی سلمت وشعبك الحر
فی كل شبر من ثراك ملا
حم قد رواها الناس والعصر
قم « یاصبیح » على الضفاف وحد
ث یا « لویس » فما لكم عذر

وطنى اعتلى عرش الخلود فتى
حــرا وليس كمثله حــر

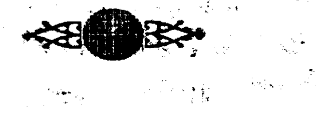
. . .

الله أكبر ، هذه مصر
أغرودة ، ألحانها سحر
رمضان قد غنتــه ملحمة
كبرى ، يطيب بعرفها الدهر
يوم كبدر فى الجلال ، غدا
وبلحنه قد أذن الفجر
وله الخلود على العصور وحسـ
ـبك أنه فى الظلمة البـدر

. . .

الله أكبر ، هذه مصر
وبروحها قد أقبل النصر
أحببتها أحببتهـا ويظل
بحبها يستفتح الشـكر

مصر التى فى مهجتى أبدا
هى موطنى والروح والذخر
ميم ، وصاد ، بعد حرفهما
راء ، فقل لى : إنها مصر



هــــذا الديوان

هذا الديوان يشتمل على قصائد وجدانية ، كتبت فى مناسبات مختلفة ، وعلى قصائد فى رثاء شريكة حياتى التى رحلت عن عالمنا إلى جوار الله ، بعد أن أدت رسالتها فى الحياة ، وعلى قصائد قومية ووطنية كتبت فى أحوال شتى .

وهذا الديوان فى مضمونه يمثل فكرا متحررا من أغلال التبعية والحداثة ، مرتبطا بالأصالة والتراث ، مسايرا لفكر البعث الروحى الأكبر ، وهو فى شكله يمثل نسيجا متحررا من أغلال القيود الفنية التى تخاصم أصول العمود الشعرى ، وتحرص على الوحدة العضوية للقصيدة ، وعلى الموسيقى ، وعلى العاطفة الصادقة ، والتجربة الشعرية ، وعلى كل أصــــول العمودية والمعاصرة معا .

ومن حيث المذهب فهى تمثل ارتباطا وثيقا بين العمودية والرومانسية ، انها الرومانسية الجديدة التى تجمع بين الوجدان الشعرى وروح المعاصرة المتجددة المبدعة .

وبالله التوفيــــق ؟

يا صديق

مهداة إلى الخفاجي

شعر د. عبد العزيز شرف

يا صديق زماننا جد هازل

هو حرب على العلا والفضائل

غرباء مثلي ومثلك فيـه

وغريب حقا به كل فاضل

يخفض العاقل السوي ويسمو

بالجهالات للذرى والأسافل

ياصديق من ذا يساويك فضلا؟

كل فضل في هوة الغبن نازل

أشهد الله يا كريم السجايا

والرسالات والمنى والشمائل

انت حملتها فلم تأل جهدا
عشت ما عشت فى الحياة تناضل
انت أديتها جميعــا واحسنـ
ـت أداء لدى جميع المحــافل
انت كرمتها بأسمى هبـات
منك يا خير المصطفين الأماثل
انت أحييتها عـــلوما لتبقى
هكذا العلم خالد غير زائل
أى شعر كشعرك الرائع الحـ
ـن يغنى وأى فكر يطاول ؟
أى فكر كمثل ما صغت من فكـ
ـر بليغ ما قاله بعد قائل ؟
أى مجد كمثل مجدك فى الشر
ق وفى مصر فى جميع المراحل؟
أى مجد وانت وحدك مجد
شامخ ما حواه غير الأوائل ؟

لغة الضاد كنت سحبانها كنت

بها خير كاتب ، خير صائل

لم ترضها معلـــا منهجيا

بل محبا وعاشقا ومقاتل

أنت اشعلت نارها وسناها

كلما جئت فى يديك المشاعل

لم يك الفكر وحده من عطايا

ك بل النبض دافقا كالزلازل

والبلاغات منك سحر مثانيـ

ـها وقد حزت سحر سحبان وائل

قد بنيت النفوس جيلا لجيلا

فهى شبت على الكفاح تقاتل

هى أقوى من أن ينال عدو

من علاها مهما العدو يحاول

غير أن الذى جرى، لست أدرى

ما جرى ، طلسم وفرط مهازل

لذت بالدين لم يخنـــك سلاح

لبـــه الصادق الذى لم يخاتل

انه النور قد احاء الدياجى

انه للفكر وده كل عاقل

كم نسجت البيان صرخة حر

وبلاغات عبقـــرى مناضل

انت بالفكر ناصر كل حق

كل خير ، وساحق كل باطل

انت من جيل العبقريين من جو

هرهم حرا من خيار البواسل

انت بالفكر ترجمان لمصر

وأديب مبشـــر متفائل

وبحرية الشعوب لكم نا

ديت وكم دافعت العنيد المجادل

يا أخى عصرنا العجيب اذا عا

دى يعادى كل عبقرى وكامل

نحن صرعى عصر لئيم السجايا

فاحى حرا عالى الذرى وتفاءل

انت منى تاريخ عمر مديد

خصك الله بالعــلا المتطاول

وسلام وبهجـــة وتحايا

من وفى وصادق الود آمل

وتهان بالاغنيات وبالذكر

ى وانى لفى ودادك رافل

* * *

ملحمة السيرة النبوية الخالدة

تصدر عن رابطة الأدب الحديث

وتؤرخ السيرة النبوية الشريفة شعرا

من صحائف الذكرى

تأليف

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

نشر رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ٣٥٢ صفحة

النغم الشعرى عند العرب

للدكتورين
محمد عبد المنعم خفاجى ، عبد العزيز شرف

نشر
دار المريخ بالرياض — ومكتبة الأكاديمية بالدقى بالقاهرة

أغنيات من عبقر

ديوان شعر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

صدر عن الهيئة العامة للكتاب

— ستون قصيدة — ٣٠٠ صفحة

موقف النقاد من الشعر الجاهلى

دراسة نقدية للشعر الجاهلى وأصوله الفنية

صدر عن مكتبة الأنجلو المصرية

فى ٣٠٠ صفحة

مجـــلة الحضارة

تصدر عن رابطة الأدب الحديث

رئيس التحرير : د . عبد العزيز شرف

مجلة كل المثقفين العرب



النـاشـــر العـربى

٨ شارع الصحافة بولاق القاهرة

ت : ٧٧٩٢٤٨